

الحرب والسلام

ليوتولستوى

الجزء السابع

ترجمة : إدوار الخراط

ليو تولستوى

الحرب والسلام

الجزء السابع

ترجمة: ادوار الخراط



الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة أدب الحرب

رئيس مجلس الإدارة :

أ . د . سمير سرحان

رئيس التحرير :

جمال الغيطانى

مدير التحرير :

سعيد عبدالفتاح

المشرف الفنى :

أميمة على أحمد

الكتاب السابع

الفصل الأول

تحكي لنا أساطير التوراة أن الفراغ من العمل ـ أى الكسل ـ كان من أحوال نعمة الإنسان الأول ، قبل السقوط . ولكن الإنسان بعد سقوطه قد احتفظ بحبه للكسل . على أن اللعنة تقع على الجنس البشرى ، لا لأننا يجب أن نكسب عيشنا بعرق جبيننا فحسب ، بل لأن من خصالنا الخلقية أننا لا نستطيع أن نكون متبطلين ومرتاحين فى الوقت نفسه . فثمة صوت داخلى يهيب بنا أننا مخطئون ما دمنا متبطلين . فلو استطاع الانسان أن يقع على حال يشعر فيها أنه يؤدى واجبه ، وهو متبطل خامل مع ذلك ، لوجد إحدى حالات النعمة البدائية للانسان . وهذه الحال من التبطل الإجبارى الذى لا ملامة فيه من حظ طبقة كاملة ـ طبقة العسكريين والجاذبية الأساسية فى الخدمة العسكرية كانت وما تزال فى هذا التعطل الإجبارى الذى لا ملامة فيه .

كان نيكولاس روستوف يمارس هذه الحال من النعمة الوسيمة حتى غايتها ، عندما استمر فى فرقة بافلوجراد بعد ١٨٠٧ ، وقد كان يقود الكتيبة التى تولاها بعد دينيزوف .

وقد أصبح روستوف فتى طيب القلب ، أميل إلى غلظة السلوك وفظاظته ، وقد يعتبره معارفه فى موسكو سيىء الذوق إلى حد ما ، وإن

كان زملاؤه ومرؤوسوه ورؤساؤه يحبونه ويحترمونه ، وكان راضياً عن حياته كل الرضا . وكان يجد فى الخطابات التى تصل من البلد ، أخيراً ، فى ١٨٠٩ ، شكاوى يكثر ترددها من أمه ، من أن أحوالهم المالية يزداد بها الاضطراب ، وأن الوقت قد حان ليعود فيفرح قلب والديه ويكون لهما فيه عزاء وراحة .

وكان نيكولاس يقرأ هذه الخطابات فتخامره خشية من رغبتهم فى انتزاعه من تلك البيئة التى كان يحيا فيها على هذا القدر من الراحة والدعة ، وفى حمى من كل تعقيدات الحياة . وكان يستشعر أنّ عليه ، إن آجلاً أو عاجلاً ، أن يعود إلى دوامة الحياة تلك بما تحمل من حرَج وربكة ، وشئون لزامٌ أن تسوّى ، وحسابات مع الوكلاء ، ومعارك ومناورات ، وروابط وعلاقات . ومجتمعات ، وحب سونيا له ووعده لها . كان ذلك كله شاقاً ومتعباً إلى حد مروّع ، وكان يجيب على أمه بخطابات شكلية متحفظة هادئة النبرة ، باللغة الفرنسية ، يبدأها بقوله «أمى العزيزة» وينهيها بعبارة « ابنك المطيـع » ، ولا يقول شيئاً عن ميعاد عودته . وفى ١٨١٠ ، تلقى من أبويه خطابات يخبرانه فيها بخطبة ناتاشا إلى بولكونسكى ، وأن الزواج سيتم بعد مرور سنة لأن الأمير الشيخ كان يقيم العراقيل . فأحزن هذا الخطاب نيكولاس ، ونال من كرامته . فقد أسف ، أولاً ، لخروج ناتاشا من البيت وهو الذى كان يوليها من الحب والاهتمام أكثر من أى شخص فى العائلة . وأسف ثانياً ، من وجهة نظره كضابط فى الفرسان ، أنه لم يكن موجوداً هناك وإلا لأظهر لهذا الفتى بولكونسكى أن النسب إليه ليس مما يعد شرفاً عظيماً فى نهاية الأمر ، وأنه إذا كان يحب ناتاشا فقد كان بوسعه أن يستغنى عن إذن أبيه المخرّف . وتردد بعض الوقت فيما إذا كان ينبغى له أن يطلب إجازة ليرى ناتاشا قبل زواجها ، ولكن المناورات جاءت ، ثم كانت هناك تلك الاعتبارات

المتعلقة بسونيا ، واضطراب أمورهم المالية ، ولذلك أجل نيكولاس زيارته.
ولكنه في ربيع تلك السنة تلقى خطاباً من أمه ، كتبته دون علم أبيه ، لحمله هذا الخطاب على العودة . كتبت له أنه إن لم يعد ويتولّ الأمور بيديه ، لبيعت أملاككهم جميعاً في المزاد ، واضطروا جميعاً للشحاذة . وأن الكونت كان من الضعف ، وكانت ثقته بعيتينكا عظيمة ، وكان من طيبة القلب بحيث أن الجميع كانوا يستغلونه ، وكانت الأمور تزداد سوءاً.
« أستحلفك بالله أن تأتى على الفور، إذا كنت لا ترغب فى إشقائى وإشقاء العائلة بأكملها . »

مسّ هذا الخطاب قلب نيكولاس كان لديه حس إدراك الرجل الواقعىّ . فدلّه على ما ينبغى أن يفعل .

كان الشىء الصواب الآن هو أن يذهب للبلد فى إجازة على الأقل ، إن لم يستقِلْ من الجيش . ولم يكن يعرف لِمَ كان عليه أن يذهب ، لكنه بعد أن تناول الغداء ، وأغفى قليلاً ، أعطى أوامره بأن يسرّج « مارس » ــ وهو جواد لحلّ أغبر شديد الشراسة لم يكن قد ركبه منذ زمن طويل . فلما عاد وقد علا الزبد شدقى الجواد، أخبر لافروشكا ــ خادم دينيزوف الذى بقى معه ــ وأخبر زملاءه الذين زاروه ذلك المساء ، أنه قد طلب إجازة وأنه عائد للوطن . كان شاقاً وغريباً عليه أن يفكر فى أنه راحل دون أن يسمع من أركان الحرب ــ وكان ذلك يشوقه جداً ــ ما إذا كان قد رقى إلى رتبة كابتن أو نال نوط سانت آن عن المناورات الأخيرة، كان غريباً عليه أن يفكر فى أنه راحل دون أن يبيع أفراسه الثلاثة الصهباء إلى الكونت جولوخوفسكى البولندى ، وقد كان يساوم فى شراء هذه الأفراس ، وراهن روستوف أنه سيبيعها بألفى روبل ، وبدا له من غير المفهوم إطلاقاً أنه لن يشهد الحفل الراقص الذى سيقيمه الفرسان تكريماً للمدموازيل برزازدزيكا ــ حتى يثبتوا أنهم لا يقلون شأواً عن فرقة

الأوهلان التي أقامت حفلاً راقصاً لتكريم صاحبتهم البولندية مدموازيل بورروزوفسكا ـ ولكنه كان يعرف أن عليه الذهاب بعيداً عن هذا العالم الطيّب الباهر الشرق إلى حيث تسود الغباوة والاضطراب في كل شيء .
وبعد أسبوع حصل على إجازته . وأقام له زملاؤه من الفرسان ـ لا في فرقته فقط ، بل في اللواء كله ـ حفلة عشاء تكلف الاشتراك فيها خمسة عشر روبلاً للفرد ، وكان فيها فرقتان موسيقيتان ، وفرقتان من المغنين . ورقص روستوف رقصة التريپاك مع الماجور بازوف ، وأمسك الضباط في ثملهم بروستوف ، فطوحوه في الهواء ، وعانقوه ، وأسقطوه على الأرض ، وأمسك به جنود الفصيلة الثالثة أيضاً فطوحوه في الهواء أيضاً ، وهتفوا له «هورراه!» ثم وضعوه في زحافة ، وصاحبوه حتى أول محطة للبريد .

وفي خلال الشطر الأول من الرحلة ـ من كريمينشوج حتى كييف ـ كانت كل أفكار روستوف ، كالمعهود دائماً في مثل هذه الحالات ، تدور عما خلفه وراءه ، في الكتيبة . ولكنه بعد أن قطع نصف المسافة أخذ ينسى أفراسه الثلاثة الصهباء ، وينسى دوزهويفكو ، صول التعيين في كتيبته ، وراح يتساءل بلهفة عن الأحوال في أوترادنيو ، وعما سوف يلقاه هناك . وكلما اقترب من البيت قويت أفكاره عنه ، وازدادت قوتها كما لو أن إحساسه هذا كان خاضعاً لقانون بمقتضاه تتناسب قوة الجاذبية تناسباً عكسياً مع مربع المسافة . وفي آخر محطة للبريد قبل أوترادنيو أعطى للسائق هبة من ثلاثة روبلات وعندما وصل ، جرى مخطوف النفَس ، كأنه ولد صغير ، يرقى سلالم البيت .

وبعد نشوة اللقاء ، بعد أن انحسر ذلك الشعور الغريب باللهفة التي لم تجد ريّاً : شعوره « أن كل شيء على حاله بالضبط ، ففيم كانت العجلة ؟» أخذ نيكولاس يستقر في عالم البيت المألوف القديم . كان أباه وأمه على حالهما ، وإن كانا قد شاخا قليلا . أما الجديد عندهما فشيء من القلق ،

وخلافٌ يقع بين الحين والحين لم يكن يتفق لهما أن يحدث فيما سبق ، وكان راجعاً ، كما اكتشف نيكولاس سريعاً ، إلى سوء أحوالهم المالية .
وكانت سونيا تشارف العشرين من العمر ، وقد كفت عن أن تزداد جمالا وحلاوة ، وما عادت واعدةً بالمزيد عما كانت عليه ، وإن كان فيه كل الكفاية . كانت يتضوع منها عبق السعادة والحب منذ أن عاد نيكولاس ، وكان لحب هذه الفتاة ، هذا الحب الوفيّ الذى لا يحول ، أثرٌ يسعد قلبه .
وإنما دهش نيكولاس أعظم الدهشة لبيتيا وناتاشا . أصبح بيتيا صبياً كبيراً وسيماً فى الثالثة عشرة ، مرحاً ، بارع اللفظ ، حاضر البديهة ، ومعابثاً شكساً ، وقد أخذ صوته بالفعل يخشوشن . أما ناتاشا فقد ظل نيكولاس زمناً طويلاً يعجب لها ويضحك كلما رآها .
فقال :
— تغيرتِ تماماً .
— كيف ؟ أصبحتُ أقبح شكلاً ؟
فهمس بها :
— بالعكس ، ولكن يا له من كبرياء ! أميرة !
فصاحت ناتاشا مبتهجة :
— نعم ، نعم ، نعم !
وأخبرته بكل قصة حبها للأمير أندرو ، وبزيارته لأوترادنيو ، وأطلعته على خطابه الأخير . وسألته :
— مسرور أنت إذن ؟ شد ما أنا هادئة وسعيدة الآن .
فأجاب نيكولاس :
— مسرور جداً . إنه فتى مدهش ... هل تحبينه جداً ؟
فأجابت ناتاشا :
— كيف أقول ؟ كنت أحب بوريس ، ومدرّسى ، ودينيزوف ؛

ولكن هذا شيء مختلف بالمرة . أشعر بالراحة والسلام والاستقرار . وأعرف أنه ما من رجلٍ فى العالم خيرٌ منه ، وأنا الآن هادئة قانعة ، راضية . ليس كما كان الحال فيما سبق بالمرّة .

فأفصح نيكولاس عن اعتراضه على تأجيل الزواج عاماً ، لكن ناتاشا هاجمت أخاها فى ثورة وضيق ، وبرهنت له أنه ما كان يمكن غير ذاك ، وأنه من غير الصواب أن تدخل أسرةٌ ضد إرادة الأب ، وأنها كانت تريد ذلك ، هى نفسها . وقالت :

— أنت لا تفهم الأمر بالمرة .

فصمت نيكولاس ، ووافقها .

كان أخوها يعجب لها ، فى الغالب الكثير من الأحيان ، إذ ينظر إليها . فلم تكن تشبه فى شيء فتاة متيمةً بالحب ، بعيدة عن خطيبها وزوجها المستقبل كانت معتدلة المزاج هادئة الطبع ، مرحة مبتهجة كما كانت تماماً فى القديم . كان ذلك يُدهش نيكولاس ، بل يدعوه للشك فى صحة نية بولكونسكى على الخطبة . وما كان بوسعه أن يصدق أنّ مصيرها قد تحدد ، وبخاصة أنه لم يرها قطّ مع الأمير أندرو . وكان يبدو له دائماً أن ثمة شيئاً ليس على صواب تماماً ، فى هذا الزواج المنتوَى . وكان يفكر :

— لمَ هذا التأخير ؟ ولماذا لم تعلن الخطبة ؟

وفى ذات مرة ، مسّ هذا الموضوع مع أمه ، فاكتشف لدهشته ، ورضىَ إلى حد ما عن اكتشافه ، أنها أيضاً فى أعماق نفسها تراودها الريب والشكوك فى هذا الزواج . وقالت وهى تطلع ابنها على خطاب من الأمير أندرو ، بذلك السخط الكامن الذى تكنه الأم عندما يتعلق الأمر بسعادة ابنتها المستقبلة فى الزواج :

— إنه يكتب ، كما ترى ، أنه لن يأتى قبل ديسمبر . فماذا يؤخره ؟ لعله المرض ! فان صحته رقيقة جداً . لا تخبر ناتاشا . ولا يغرك أنها تبدو

مشرقة متهللة : فانها تعيش آخر أيام بكارتها ، ولكنى أعرف كيف حالها كلما تلقينا منه خطاباً ! وعلى كل حال ، ربنا يتمم بخير ! (كانت دائماً تنتهى بهذه الكلمات) فإنه رجل عظيم !

الفصل الثانى

كان نيكولاس فى أول الأمر ، بعد أن وصل إلى البيت ، جاداً بل كئيباً . وكان مهموماً بتلك الضرورة التى سوف تلحثه سريعاً إلى التدخل فى الشئون العملية السخيفة التى دعته أمه للبيت بشأنها . ورغبةً فى أن يلقى بهذا العبء عن كاهله بأسرع ما يمكن ، ذهب إلى كوخ ميتينكا ، فى اليوم الثالث لوصوله ، قطوبَ الوجه غاضباً دون أن يجيب عند ما سئل إلى أين كان ذاهباً . وطلب منه «حساباً عن كل شىء» . إلا أن نيكولاس كان أقل معرفة بما يمكن أن يكون هذا «الحساب عن كل شىء» من ميتينكا نفسه الذى استبدت به الحيرة والفزع . ولم يستغرق الحديث مع ميتينكا وفحص الحسابات معه زمناً طويلاً . كان شيخ القرية، ومندوبٌ عن الفلاحين، وكاتب القرية ينتظرون فى الممر ، وسمعوا ، فى خوف وسرور ، صوت الكونت الشاب يجأر ويقصف ويدوى ويطرد ارتفاعاً فى أول الأمر ، ثم سمعو الشتائم والسباب وألفاظاً مروّعة تتلاحق :

— يا لص ! أيها الشقى الجاحد الجميل ..! سأمزقك قطعاً صغيرة يا كلب ..! أنا لست أبى ، أنا ..! تسرقنا يا لص ..!

وهلمّ جرا ...

ثم رأوا ، بما لا يقلّ عن ذلك من خوف وسرور ، كيف احمر وجه الكونت الشاب ، وتخضبت عيناه بالدم ، وجرّ ميتينكا من زمّارة رقبته ، ووكله بقدمه وركبته على مؤخرته برشاقة بالغة ، وفى اللحظات المناسبة ، بين كلماته ، وهو يصيح :

— إمش اخرج ! لا تدعنى أرى وجهك هنا مرة أخرى ، يا مجرم !

فطار ميتينكا لا يلوى على شىء ، ينزل الدرَجات الست ، وجرى إلى الغابة ـ فقد كانت هذه الغابة ملاذاً يعرفه حق المعرفة كل المذنبين فى أوترادنيو . وكان ميتينكا نفسه إذ يعود مخموراً من البلد يختبىء فيها ، وكان الكثيرون من سكان أوترادنيو يعرفون خصائص الوقاية فيها ، إذ يختبئون من ميتينكا نفسه .

ودفعت زوجة ميتينكا وأختها برأسيهما ، مفزّعتين ، من باب الغرفة التى كان يغلى فيها ساموفار متوقّد لامع ، حيث كان سرير الوكيل يقوم ، وعليه لحاف من الرُّقَع الملونة .

فلم يلق إليهما الكونت الشاب بالاً ، بل مرّ بهما ، متسارع الأنفاس بخطوات كلها عزم وتصميم ، وذهب إلى البيت .

أما الكونتيسة فسمعت بما حدث فى الكوخ ، على الفور ، من الخادمات ، فهدأ بالها وارتاحت لفكرة أن كل أحوالهم سوف تتحسن الآن بالتأكيد ، ولكنها كانت من ناحية أخرى تستشعر القلق بما قد يصيب ابنها من جراء هذا الانفعال . فذهبت إلى بابه عدة مرات ، تخطو على أطراف أصابعها ، وأصاخت السمع ، وهو يشعل غليونه المرة بعد المرة .

وفى اليوم التالى دعا الكونت الشيخ ابنه إلى جنب . وقال له بابتسامة محرَجة :

— ولكن أنت تعرف يا ولدى العزيز ، من أسف أنك فقدت أعصابك ! أخبرنى ميتينكا بالأمر .

ففكّر نيكولاس :

— كنت أعرف أننى لن أفهم شيئاً أبداً فى هذا العالم المجنون .

قال أبوه :

— غضبتَ لأنه لم يقيّد هذه السبعمائة روبل . ولكنها كانت منقولة

للصفحة التالية ، وأنت لم تلق نظرة على الصفحة التالية .

— بابا ، إنه لص ووغد ! أنا أعرف هذا ، وما فعلته فعلته ، ولكنى لن أكله مرة أخرى إذا أحببت .

كان الكونت أيضاً يحس حرجاً وارتباكاً . فقد كان يعرف أنه أساء إدارة أملاك زوجته ، وأنه كان حقيقاً باللوم أمام أبنائه ، لكنه لم يكن يعرف كيف يعالج الأمر . فقال :

— لا ، يا ولدى العزيز ، لا ، بل أرجوك أن تهتم بهذه الأمور . فإننى عجوز . وأنا ...

— لا يا أبى . اغفر لى إذا كنت قد سببت لك هذا الضيق . إنى أفهم فى ذلك كله أقل منك بكثير .

ودار بذهنه :

— فلتذهب فى داهية ، كل هذه الفلاحين ، ومشاكل الفلوس ، ونقل الحسابات من صفحة إلى صفحة ..! أنا أفهم ما معنى الرهان على الورق أو « الزنقة » فى اللعب . ولكنى لا أفهم بالمرة نقل الحسابات إلى صفحة أخرى .

وكفّ بعد ذلك عن إقحام أنفه فى الشئون العملية . ولكن الكونتيسة نادته ، مرة ، وأخبرته أن عندها كمبيالة من آنا ميخايلوفنا بمبلغ ألف روبل وسألته رأيه فيما تفعل بها .

فأجاب نيكولاس :

— تفعلين هذا : أنت تقولين أن المسألة تتوقف علىّ . حسناً ، أنا لا أحب آنا ميخايلوفنا ، ولا أحب بوريس ، لكنهم كانوا أصدقاءنا ، وكانوا فقراء . حسناً إذن ، تفعلين هذا .

ومزق السند ، وبذلك حمل الكونتيسة العجوز على البكاء من الفرح . وبعد ذلك لم يمد روستوف الشاب يده إلى شأن من الشئون العملية ،

ولـكنه شُغِل ، فى حمـاس مشبوب ، بشىء جديد عليه : هو الصيد ، وكان أبوه يحتفظ لهذا الغرض بمنشآت ضخمة .

الفصل الثالث

كان الجو يميل من الآن إلى أن يغدو شاتياً ، وكان بَرْد الصباح يتجمد على الأرض المشبعة بأمطار الخريف وكانت الخضرة قد كثفت وغلظت ، وغضوضتها اليانعة تتضح جدودها القاطعة بإزاء الخطوط المائلة للغبرة من شوفان الشتاء الذى هرسته الماشية فى وطئها عليه ، وإزاء الدريس الأصفر الباهت من بَذ ر الربيع ، والخطوط الجانحة للحمرة من الحنطة السوداء . كانت الوديان المخضرة بالشجر والخمائل التى ظلت حتى نهاية أغسطس جزراً خضراء فى وسط الحقول السوداء و الدريس ، قد أصبحت الآن جزراً ذهبية وحمراء ناصعة فى وسط شوفان الشتاء الأخضر . وقد غيرت الأرانب البرية منذ الآن نصف جلودها الصيفية وراحت جراء الثعالب تتناثر ، والذئاب الصغار قد كبرت عن الـكلاب . كان ذلك خير أوقات السنة للصيد . ولم تـكن كلاب روستوف ، ذلك الرياضى الشاب المتوقد حماساً ، قد اشتد عودها فحسب ، كما يحدث لها فى الشتاء ، بل كانت قد أصبحت على حالٍ من القلق والتبرم حتى تقرر فى اجتماع للصيادين أن ترتاح ثلاثة أيام ثم تخرج فى السادس عشر من سبتمبر إلى رحلة طويلة تبدأ من خميلة البلوط حيث كانت توجد ولْـدةٌ لم تُمس من جراء الذئاب .

بقيت كلاب الصيد طيلة يومها ذاك فى البيت . وكان البَرَد يتساقط والهواء لاذع الوقع ، وقرابة المساء غامت السماء وأخذ البرَد يذوب . وفى الخامس عشر عند ما نظر روستوف الشاب ، وهو يرتدى الروب دى شامبر ، من النافذة ، رأى صباحاً لا يُضارع فى صلاحيته للصيد . كانت السماء تذوب فيما يبدو ، وتغوص إلى الأرض ، دون أن تهب نسمة

من الريح . وكانت الحركة الوحيدة التى يهتز بهـا الهواء هى جزئيات الضباب الذى يسقط كالطل الدقيق . وكانت الأغصان الجافة الجرداء فى الحديقة تتعلق بها قطرات شفافة تتحدّر علىأوراق الشجر التى سقطت على الأرض منذ عهد قريب. والتربة فى حديقة المطبخ تبدو مطلولة بليلة سوداء ، وتلمع كأنها بذر الخشخاش، وتندغم على بُعدٍ يسير بغشاوة الضباب الجهْمة الندية . خرج نيكولاس إلى الشرفة الموحلة المبلولة . فنشق ريحاً من أوراق الشجر المتعفنة والـكلاب . ونهضت ميلكا، وهى كلبة مرقطة بالسواد عريضة الحقوين لها عينان سوداوان جاحظتان ، عند ما رأت سيدها ، وتمطت بساقيها الخلفيتين ، ورقدت كأرنب برية ، ثم وثبت فجأة ، ولحست أنفه وشاربه . وكان هناك كلب آخر من نوع « البورزوا » ما أن أخذ بصره سيده من ممر الحديقة حتى قوّس ظهره . واندفع لايلوى إلى الشرفة زافعاً ذنَبه ، وأخذ يحك نفسه بساقى سيده .

— أو .. هوىْ !

جاءت فى تلك اللحظة صيحة الصيادين التى لا نظير لها والتى توحد أعمق نغمة من الباص الأجش وأعلى نغمة من التينور الثاقب ، وظهر من خلف الركن دانيل رئيس الصيادين ورئيس حرس الكلاب ، وهو شيخ مغضن أغبر مجزوز الشعر فوق جبهته مباشرة ، على طريقة الأوكرانيين ، وفى يده سوط طويل مثنىّ ، وفى عينيه تلك النظرة من الاستقلال والاحتقار التى لا ترى إلا فى أعين الصيادين . فلمس قلنسوته القوقازية تحية لسيده، ونظر إليه باحتقار . وما كان فى هـذا الاحتقار ما يغضب سيده . كان نيكولاس يعرف أن دانيل هذا يزدرى الجميع ويتعالى على الـكل ، ويرى نفسه فوقهم جميعاً ، وهو مع ذلك قِنُّه وتابعه وصياده .

قال نيـكولاس فى خجل وحياء :

— دانيل ..!

وقد أحس ، لمرأى الجو ، والكلاب ، والصيادين ، أن هواه بالرياضة الذى لا سبيل إلى مقاومته ، يجمح به ، هذا الهوى الذى يحمل الرجل على نسيان كل ما اتخذه من قرارات ، كما ينسى العاشق كل شىء فى محضر حبيبته .

قال الصياد فى صوته الأجش العميق ، كأنه صوت شماس فى عمقه ، وقد بحّ من النداء :

— ما أوامرك يا صاحب السعادة ؟

وبرقت عيناه السوداوان التألقتان ، من تحت جبينه . فى سيده الذى ظل صامتاً . وبدا كما لو كانت هاتان العينان تسألان :

— أبوسعك أن تقاوم ؟

سأل نيكولاس ، وهو يحك ميلكا خلف أذنها :

— يوم حسن ، هيه ؟ للصيد والجرى ، هه ؟

فلم يجب دانيل ، بل غمز بعينه .

ودوى صوته الأجش بعد لحظة صمت :

— أرسلت أوفاركا فى الفجر ليتسمع . وهو يقول أنها نقلتهم إلى داخل أسوار أوترادنيو . وكانت تعوى هناك

كان معنى ذلك أن الذئبة التى كانا يعرفان أمرها ، كلاهما ، قد نقلت جراءها إلى غابة أوترادنيو ، وهى بقعة صغيرة تبعد حوالى ميلين عن البيت.

قال نيكولاس :

— ينبغى أن نذهب ، ألا تعتقد ذلك ؟ تعال إلىّ مع أوفاركا .

— كما تشاء .

— أجّل غداءهم إذن .

— نعم ، ياسيدى .

وبعد خمس دقائق كان دانيل وأوفاركا يقفان فى غرفة مكتب نيكولاس الكبيرة . وعلى ان دانيل لم يكن ضخم الجرم ، إلا ان مرآه فى غرفة كان

بمثابة مرأى حصان أو دبّ فيها ، على الأرضية الخشبية ، بين الأثاث وما يحيط بحياة الإنسان . وكان دانيل يستشعر ذلك بنفسه ، فوقف ، دأبه ، إلى داخل الباب مباشرة ، يعالج أن يتكلم بصوت خفيض وألا يتحرك ، خشية أن يكسر شيئاً ما في شقة سيده ، وعجل بقول كل ما تدعو الضرورة لقوله ، حتى يخلص خارجاً من تحت هذا السقف إلى العراء البراح تحت السماء مرة أخرى .

فلما فرغ نيكولاس من أسئلته ، واستخلص من دانيل رأيه بأن الكلاب في حال طيبة — كان دانيل نفسه يرغب في الخروج للصيد — أمر بالخيول فأسرجت . وما كاد دانيل يهم بالخروج حتى اقبلت ناتاشا بخطى سريعة ، ولم تكمل تمشيط شعرها بعد ولا فرغت من استكمال إعداد نفسها ، وقد لفت شال مربيتها العجوز الكبير حول كتفيها ، وجرى پيتيا داخلاً في نفس الوقت .

سألت ناتاشا :

— ذاهب أنت ؟ كنت أعرف أنك ذاهب ! قالت سونيا أنك لن تذهب ، لكنى أعرف أن اليوم هو من الأيام التى لا تملك فيها إلا أن تذهب .

فأجاب نيكولاس ، على غير رضاه :

— نعم ، سنذهب .

فقد كان ينوى أن يخرج للصيد الجاد اليوم ، ولم يكن يرغب أن يأخذ معه ناتاشا أو پيتيا .

— سنذهب ، ولكننا سنصيد الذئاب فقط . وهو شيء يضجركم .

قالت ناتاشا :

— أنت تعرف أنه أعظم دواعى سرورى . ليس هذا عدلاً ، ستذهب وحدك ، وقد أمرت بأن تسرج الخيول ، ولم تقل لنا شيئاً .

وصاح پيتيا :

— « ليس ثم عائق يقف فى طريق أحد الروس » سنذهب !

قال نيكولاس لناتاشا :

— لايمكنكم الذهاب . قالت ماما أنه لاينبغى لكما أن تخرجا للصيد .

قالت ناتاشا بلهجة حاسمة :

— بلى ، سوف أذهب . سوف أذهب بالتأكيد .

وأضافت قائلة للصياد :

— دانيل ، قل لهم أن يسرجوا جوادين لنا ، وأن يأتى ميشال مع كلابى .

كان يلوح لدانيل من غير اللائق ولا من المريح أن يبقى فى داخل غرفة من الغرف على الاطلاق ، أما أن يكون له شأن ما مع سيدة صغيرة فذلك ما كان يلوح له مستحيلاً . فغض عينيه ، وخرج عجلاً كما لو كان ذلك كله لم يكن من شأنه ، وقد حرص فى خروجه ألا يُلحق ، بالصدفة ، أى أذى بالسيدة الصغيرة .

الفصل الرابع

كان الكونت الشيخ يحتفظ دائماً بمنشآت ضخمة للصيد ، ولكنه الآن كان قد سلمها لابنه تماما ، وكان معتدل المزاج جداً فى ذلك الخامس عشر من سبتمبر ، فأخذ أهبته للخروج مع الآخرين .

وبعد ساعة كانت جماعة الصيد كلها فى الشرفة . ومرّ نيكولاس ، وعلى وجهه تعبير عن الرصانة والصرامة ينم عن أن الوقت الآن لايتسع للتوافه ، فتجاوز ناتاشا وپيتيا اللذين كانا يحاولان أن يقولا له شيئا .

وألقى بنظرة على كل تفاصيل الاستعدادات للصيد ، وأمر فأرسل قطيع من الكلاب وجماعة من الصيادين فى المقدمة ، لتبحث عن الفريسة . ثم ركب حصانه الأشقر دونيتس ، وصفر لقطيعه الخاص من كلاب البورزوا .

وانطلق عبر الجرن إلى غيط يفضى إلى غابة أوترادنيو . وكان يقود حصان الكونت الشيخ ، وهو خصى أصدأ اللون يدعى ڤيفليانكا ، سائس خاص مهمته أن يعنى به ، وكان الكونت نفسه سيستقل زحافة مباشرة إلى بقعة أفردت له .

كان معهم أربعة وخمسون كلب سلوقى وستة صيادين وسياطين . وكان هناك ، فضلا عن أفراد العائلة ، ثمانية رجال من حرس كلاب البورزوا ، وأكثر من أربعين كلب من هذه الكلاب ، فاذا أخذت فى الاعتبار كلاب البورزوا المربوطة بالحبال والتى يملكها أفراد العائلة ، بلغ عدد الجميع نحو مائة وثلاثين كلباً وعشرين فارساً .

كان كل كلب منها يعرف سيده ، ويعرف نداءه ، وكل رجل فى فريق الصيد يعرف مهمته ، ومكانه ، وماذا كان عليه أن يفعل . وما أن تجاوزوا السور حتى انبسطت المسافات بينهم على قدر متعادل ، وبهدوء ، من غير ضجة أو حديث ، على طول الطريق والحقل الذى يفضى إلى غابة أوترادنيو .

كانت الجياد تخطو على الحقل كما تخطو على سجادة وثيرة كثيفة ، تطس الماء بين الحين والحين فى برك صغيرة إذ تعبر الطريق . وكانت السماء الغائمة ما تزال تبدو كأنها تهبط نحو الأرض ، باستمرار ، ودون أن تلحظ . وكان الهواء ساكناً ، دافئاً لاصوت فيه ، وبين الحين والحين يسمع صفير أحد الصيادين ، أو زفرة حصان ، أو قرقعة سوط ، أو عواء كلب صيد سلوقى متخلف .

فلما قطعوا نحو ميل من المسافه ، ظهر فى الضباب خمسة فرسان آخرون مع كلابهم ، واقتربوا من آل روستوف . وكان يركب فى مقدمتهم شيخ وسيم يبدو غضّ المظهر ، له شارب كبير رمادىّ .

قال نيكولاس ، عندما دنا منهم الشيخ :

— صباح الخير ياعمى !

فقال « العم » :

— آه ، بالضبط . هيا بنا ..! كنت واثقاً .

كان من ذوى قربى روستوف البعيدين ، ورجلاً على شىء يسير من الثروة ، ومن جيرانهم .

— كنت أعرف أنكم لن تستطيعوا المقاومة ، شىء طيب أنكم ذاهبون . بالضبط ! هيا بنا ..!

كانت هذه العبارات أثيرة جداً إلى « العم » .

— إتجهوا إلى الغابة فوراً . فان تابعى جيرشيك يقول أن آل إيلاچين ذهبوا إلى كورنيكى بكلابهم . بالضبط . هيا بنا ..! سيأخذون الجراء من تحت أنوفكم !

قال نيكولاس :

— نحن ذاهبون هناك . فهل نضم بعضنا إلى بعض ؟

فانضمت الكلاب السلوقية فى قطيع واحد ، وركب « العم » ونيكولاس جنباً إلى جنب . وكانت ناتاشا متلففة فى شيلان لم تخفِ مع ذلك وجهها الجياش باللهفة والشغف وعينيها اللامعتين ، فأقبلت تعدو إليهما . وتبعها پيتيا الذى كان دائماً على مقربة منها ، وميشال الصياد ، وسائس مخصص لخدمتها . كان پيتيا يضحك ، وكان يضرب حصانه بالسوط ويجذب عنانه . كانت ناتاشا تركب حصانها الأسود أرابشيك فى يسر وثقة ، وتمسك لجامه بيد ثابتة ، دون جهد

نظر « العم » فى غير رضا إلى بيتيا وناتاشا . لم يكن يحب أن يجمع الخفة والطيش إلى شُغل الصيد الجاد .

صاح بيتيا :

— صباح الخير يا عمى ! نحن أيضاً ذاهبون !

فقال « العم » بصرامة :

— صباح الخير صباح الخير ! ولكن لاتذهبوا فتسرفوا على الكلاب فى عَدْوكم بالخيل .

قالت ناتاشا مشيرة إلى كلبها السلوقىّ الأثير :

— نيكولاس ، أنظر إلى ترونيلا ! ياله من كلب مدهش ! إنه يعرفنى .

فدار بذهن نيكولاس :

- ليس ترونيلا ، أولاً ، كلباً ، بل عدّاءً .

ونظر إلى اخته بصرامة ، يحاول أن يشعرها بما ينبغى أن يكون بينهما من بعد وتحفظ فى هذا الوقت الخطير . ففهمت ناتاشا وقالت :

— لاتظن أننا سوف نعوقكم ياعمى . سنذهب إلى مكاننا ولن نتحرك منه قيد شعرة .

فقال « العم » :

— وهو شىء طيب أيتها الكونتيسة الصغيرة . ولكن حذار أن تقعى من على حصانك ، لأن ... بالضبط ، هيا بنا ..! ليس هناك ما تمسكين به .

وظهرت واحة غابة أوترادنيو على بُعد مائتى متر ، وكان الصيادون يقتربون منها بالفعل وسوىّ روستوف مع « العم » ، أخيراً ، مسألة المكان الذى يطلقون فيه الكلاب السلوقية وأوضح لناتاشا أين يكون عليها أن تقف — فى بقعة ما كان ليمكن أن يجرى إليها شىء ما على

الاطلاق ـ ثم مضى يدور حول الوادى .

قال العم :

ـ يابن العم ، أنت ذاهب وراء ذئبة كبيرة واعية . فلا تدعها تفلت منك .. !

قال روستوف :

ـ أنا وحظى .

وصاح ، معقباً على ملاحظة « العم » بندائه لكلبه البورزوا :

ـ كاراى ! هنا !

كان كاراى كلباً عجوزاً مشعث الشعر متدلى الفك ، وقد طارت له شهرة بعد أن كان قد هاجم ذئباً ضخماً ، دون عون أو نجدة . واتخذ الجميع أماكنهم .

كان الكونت الشيخ يعرف حماس ابنه فى الصيد ، فأسرع حتى لايصل متأخراً ، وما كاد الصيادون يصلون إلى أماكنهم حتى أدرك الكونت إيليا روستوف مكانه المخصص له ، مبتهجاً مرحاً متضرج الوجه يرتعش خداه ، بعربته التى تسوقها خيله السوداء على شيلم الشتاء ، ووقف فى هذا المكان حيث كان من المحتمل أن يخرج اليه ذئب ، وسوّى معطفه وثبت خناجر الصيد ، والبوق ، وأمتطى ڤيفليانكا حصانه الحسن المريح ، الناعم بالغذاء الطيب وكان شعره قد وخطه الشيب ، كشعر سيده . وأرسلت عربته وخيولها إلى البيت . ولم يكن الكونت إيليا روستوف رياضياً متحمساً ، فى أعماق قلبه ، لكنه كان يعرف قواعد الصيد حق المعرفة ، فركب إلى حافة الغابة المشجرة حيث كان عليه أن يقف ، وسوى من رمام حصانه ، واستقر على سرجه . فلما اطمأن إلى أنه على أهبة الاستعداد ، أجال البصر حواليه باسماً .

كان إلى جانبه سيمون شيكمار ، تابعه الخاص ، وهو فارس عجوز

أضحى الركوب شاقاً عليه الآن ، إلى حد ما وكان شيكار يمسك فى حباله بثلاثة كلاب « وولف » مخوفة ، وإن كانت قد مالت إلى البدانة كسيدها ، وحصانه . ورقد على الأرض كلبان عجوزان حكيمان ، غير مربوطين . وعلى بعد نحو مائة خطوة على حافة الغابة ، وقف ميتكا ، سائس الكونت الآخر ، وهو فارس جسور وبارع جداً فى سوق الكلاب . وشرب الكونت الشيخ ، قبل الصيد ، وفقاً للعادة القديمة ، جرعةً من البراندى الساخن المحلى ، من كأس فضية ، وأكل شيئاً يسيراً ، واتبعه بنصف زجاجة من البوردو الأثير إليه .

وكان متضرج الوجه قليلاً من النبيذ والركوب . وكانت عيناه نديتين إلى حد ما ، تتألقان بألق أسطع من المعهود ، وجلس على سرج الحصان مدثراً بمعطف من الفرو ، فكان يبدو كطفل أُخذ للنزهه فى الهواء الطلق .

وكان شيكار ناحلاً غائر الخدين ، وقد أعدّ كل شىء ، فبقى يلحظ بنظراته سيده الذى عاشره خير عشرة ، ثلاثين عاماً ، ففهم مزاجه إذ ذاك . وانتظر أن يشترك معه فى ثرثرة لطيفة . وركب من خلال الغابة شخص ثالث فى حرص وحذر ـ كان من الواضح أنه تلقى درسا قاسياً ـ ووقف إلى الخلف من الكونت . كان شيخا رمادىّ اللحية يرتدى عباءة نسوية وعلى رأسه قلنسوة مدببة عالية . كان هذا هو المهرج الذى يطلق عليه اسم امرأة : ناستاسيا إيڤانوڤنا .

همس الكونت وهو يغمز إليه :

ـــ آه ، ناستاسيا إيڤانوڤنا ! لو أنك أخفت الوحش فسوف يلقنك دانيل درساً .

فقال ناستاسيا إيڤانوڤنا :

ـــ أنا أيضاً أعرف شيئاً من هنا وشيئاً من هناك !

همس الكونت :

— شش !

والتفت إلى سيمون وسأله :

— هل رأيت الكونتيسة الصغيرة ؟ أين هى ؟

فأجاب سيمون باسماً :

— مع الكونت بيتر الصغير ، عند أعشاب زهاروف . إنها مغرمة جداً بالصيد ، رغم أنها سيدة .

قال الكونت :

— وأنت مندهش ياسيمون لمعرفتها بركوب الخيل ، هيه ؟ إنها تجيد الركوب كأى رجل .

— بالطبع ! هذا عجيب ! فى منتهى الجسارة ، والسهولة !

— ونيكولاس ؟ أين هو ؟ عند مرتفع ليادوف ، أليس كذلك ؟

قال سيمون ، وهو مدرك تماما ماذا يدخل السرور على قلب سيده :

— نعم يا سيدى . إنه يعرف أين يقف . إنه يفهم الصيد حق المعرفة ، حتى أنه ليدهشنا كل الدهشة أنا ودانيل .

— يجيد الركوب هه ؟ وما أروع منظره على حصانه ، هه ؟ صورة رائعة ! يالها من مطاردة ، منذ بضعة أيام ، عند ما تعقب ثعلباً من الأعشاب الكثيفة عند غابة زافارزينسك ! وثب من فوق بقعة مخيفة ، وياله من مشهد عند ما اندفعا كلاهما خارجين من الغابة ... الحصان يساوى الف روبل ، والفارس لايقدر بثمن ! نعم ، يطول البحث جداً لو حاول المرء أن يجد فارساً فى مثل رشاقته .

فردد الكونت ، وواضح أنه آسف لأن سيمون لم يزد :

— يطول البحث ...

وردد ، وهو يدير ذيل معطفه فى طلب صندوق سعوطه :

— يطول البحث ...

قال سيمون :

— ومنذ بضعة أيام عندما خرج من الكنيسة فى كامل حلته الرسمية

قال ميشال سيدوريتس ...

ولم يكمل ، فقد التقط سمعه ، فى الهواء الساكن ، موسيقى الصيد واضحة جلية ، بالرغم من أنها لم تكن تتأتى إلا عن سلوقيين أو ثلاثة .

فأحنى رأسه ، وأصاخ السمع ، وهو يهز إصبعه محذراً سيده ، وهمس :

— إنهم عثروا على ريح الجراء ، متجهة مباشرة إلى مرتفعات ليادوف.

فنسى الكونت أن يمسح الابتسامة التى على وجهه ، ونظر إلى البعد ، أمامه مباشرة ، عبر الحيز الضيّق العراء ، وفى يده صندوق السعوط ، ولكنه لا ينشق منه شيئا . وبعد صياح الكلاب جاءت نغمات عميقة هى نغمات نداء الذئب من بوق دانيل ، فلحق قطيع الكلاب بالكلاب الثلاثة الأولى ، وتسنى أن يُسمع صياحها صاخباً ، وفيه تلك النغمة الثاقبة العالية التى تنم عن أنها تطارد ذئباً . ولم يعد السياطون يكبحون الكلاب بل أطلقو صيحة « يليوليو » المستحثة ، وارتفع صوت دانيل فوق صيحات الجميع ، أجش عميقاً ، ثم ثاقباً حاداً مرتفعاً . وكان يلوح أن صوته يملأ الغابة جميعاً ويتجاوزها إلى بعيد ، عبر الحقول الفسيحة الخلاء .

وبعد أن أصغى الكونت وتابعه بضع لحظات ، صامتين ، اقتنعا بأن الكلاب قد انقسمت فريقين : فقد كان الفريق الأكبر منهما ـ وكان ينبح بشدة ـ قد أخذ صوته يخفت على البعد ، أما الفريق الآخر فقد اندفع ماراً بالغابة ، وتجاوز الكونت ، وكان يسمع معه صوت دانيل ينادى : « يليوليو » . واندمجت أصوات الفريقين ، ثم انفرقت ، ولكنهما كانا يبعدان .

تنهد سيمون ، وانحنى ليصلح من هيكل لجام كلب بورزوا صغير كان قد اشتبك بعضه بالبعض ، وتنهد الكونت أيضاً ، ولاحظ صندوق السعوط في يده ففتحه وأخذ منه نشقة وهتف سيمون بالبورزوا الذى يجذب لجامه خارجا من الغابة :

— ارجع !

فأجفل الكونت وأسقط صندوق السعوط . وترجل ناستاسيا إيفانوفنا ليلتقطه . وكان الكونت وسيمون ينظران إليه .

وفجأة ، وكما يحدث غالباً ، اقترب صوت الصيد فجأة ، كأنما أمامهم مباشرة ، كانت الكلاب تنبح بأعلى أصواتها ، ودانيل يهتف « يليوليو » ،

واستدار الكونت ورأى إلى يمينه ميتكا يبرق فيه بعينين جاحظتين من محجريهما ، يرفع قلنسوته ويشير أمامه إلى الجانب الآخر وصاح :

— احترس !

بصوت ينم بوضوح أنه كافح طويلاً ليلتقط تلك الكلمة ، وقد ترك الكلاب تفلت منه ، واندفع يعدو نحو الكونت .

فأطلق الكونت وسيمون جواديهما يعدوان خارجين من الغابة ، ورأيا على يسارهما الذئبة التى كانت تتبختر على مهل ، مقبلة فى خطوة هادئة من اليسار ، إلى نفس البقعة التى كانا يقفان فيها عوت الكلاب البورزوا بأنين غاضب ، وانطلقت من اللجام فاندفعت إلى الذئبة ، عبر سيقان الجوادين .

وقفت الذئبة لحظة ، وأدارت جبينها الثقيل نحو الكلاب فى حركة محرجة هوجاء ، كأنها تعانى من التهاب الحلق ، ووثبت مرتين ، وهى ما زالت تتبختر بحركة هينة ، واختفت فى حافة الغابة وهى تضرب بذيلها . .
وفى نفس اللحظة وثب من الغابة المقابلة كلب سلوقى ثم ثان وثالث ، وهى

تصيح كأنها تنوح وتعول ، وقد اختلط بعضها بالبعض ، ثم اندفع القطيع كله عبر الحقل الى البقعة التي اختفت فيها الذئبة . وانفرجت شجيرات البندق خلف الكلاب ، وظهر حصان دانيل الأصهب ، وقد دكن لونه من العرق . وعلى متنه الطويل كان دانيل محنياً إلى أمام ، بلا قبعة ، وقد تدلى شعره الرمادي المشعث على وجهه المتضرج المبلل بالعرق . وصاح :

— يليوليو ..! يليوليو ..!

فلما رأى الكونت سطع البرق في عينيه .

وهتف :

— عليك اللعنة !

وقد شهر سوطه مهدداً الكونت :

— تركت الذئب يعض ..! يالك من رياضي !

وكأنما كان يستهين بأن يقول كلمة واحدة أخرى للكونت الذي بدا خائفاً خزيان ، فضرب بالسوط جنبي حصانه الأصهب الناهج العرقان ، بكل ما أثاره فيه الكونت من غضب ، وطار خلف الكلاب . نظر الكونت حواليه ، كأنه تلميذ نال عقابه وحاول ، بابتسامة ، أن يكسب عطف سيمون على سوء حاله . لكن سيمون لم يكن هناك . كان يعدو ، يدور حول الشجيرات ، بينما كانت الكلاب تأتي من الناحيتين ، تحاول جميعاً أن تسبق الذئبة . لكن الذئبة اختفت في الغابة قبل أن يلحقوا بها .

الفصل الخامس

في هذه الأثناء بقي نيكولاس روستوف في موقعه ، ينتظر الذئبة . وكان يفهم ما يحدث في الغابة ، من دنو الصيد ثم ابتعاده ، وذلك من صيحات الكلاب التي كان يعرف أصواتها ، ومن دنو أصوات الصيادين ، وانحسارها ، وارتفاعها . كان يعرف أن الذئاب ، جراء أو كباراً ، كانت هناك ، وأن

الـكلاب قد انقسمت فريقين ، وأن هناك ذئباً يُطارد فى مكان ما ، وأن شيئاً ما قد جانبه التوفيق والصواب . وتوقع أن تأتى الذئبة فى أية لحظة ، فى طريقه . وأقام لنفسه آلاف الافتراضات المختلفة عن مأتى الوحش إلى حيث كان ، من أى جانب سيخرج له ، وكيف يقع عليه . وكان الأمل يراوحه واليأس واتجه لله بالصلاة مرات عدة أن يرسل بالذئبة إلى طريقه . كان يصلى بذلك الاحساس المتقدّ المشوب الخزيان الذى يساور الناس فى صلاتهم عندما يهيجهم انفعال حاد صادر عن أسباب تافهة . كان يقول لله :

— ماذا يكلفك أن تفعل هذا من أجلى ؟ أننى أعرف أنك عظيم ، وأنه حرام أن أسألك مثل هـذا ، ولكن فلتسمح أن تأتى الذئبة العجوز فى طريقى ، وأن يثب عليها كاراى ، أمام « العم » الذى يرقبنا من هناك ، فيمسكها من خناقها مسكة الموت !

ألقى روستوف آلاف المرات فى أثناء نصف ساعة ، نظرات قلقة ملهوفة إلى حافة الغابة ، حيث تقوم بلوطتان خشنتان عجفاوتان فوق نباتات الحور الرجراج ، على الأخدود الذى بليت حافته من فعل الماء ، وقلنسوة « العم » ما تـكاد تلوح فوق الشجيرات على يمينه .

ودار فى ذهن روستوف :

— لا ، ليس لى مثل هذا الحظ ، ولـكن ما أثمن ذلك لو تحقق ! لن يحدث هذا ! إننى دائما عاثر الحظ ، فى اللعب وفى الحرب .

وسطعت فى ذهنه ذكريات عن أوسترلتز ، وعن دولوخوف ، سريعة جلية . وجال بخاطره ، وهو يحد النظر إلى اليسار ثم إلى اليمين ، ويصغى إلى أهون تباين فى نبرة صياح الكلاب :

— مرة واحدة فى حياتى ! أن أحصل على ذئبة عجوز ، لست أريد إلا هذا !

ومرة أخرى نظر إلى اليمين ، ورأى شيئاً يجرى إليـه عبر

الحقل الخاوى .

فخطف فى ذهنه ، وهو ينشق نفساً عميقاً ، كما يفعل الرجل إذ يقع على شىء طال أمله فيه :

ـــ لا يمكن !

أدرك ذروة السعادة ، بمثل هذه البساطه ، دون تحذير أو ضجة أو بهرج ، حتى لم يستطيع أن يصدق عينيه ، وظل فريسة للشك ، أكثر من لحظة جرت الذئبة إلى أمام ، ووثبت وثبة ثقيلة فوق الأخدود الذى كان يقع فى طريقها . كانت وحشاً عجوزاً تقادمت بها السن ،ظهرها أغبر اللون ، ولها كرش ضخمة ضاربة إلى احمرار . وكانت تجرى غير عجلة ، وواضح أنها توقن بأنه ما من أحد يراها . حبس روستوف أنفاسه ونظر حواليه إلى كلاب البورزوا . كانت الكلاب تقف أو ترقد،لاترى الذئبة ولا تفهم الموقف . كان كاراى العجوز قد أدار رأسه ، وراح يبحث عن البراغيث فى غضب ، وقد كشر عن نواجذه الصفراء ، وراح يقضم على أسنانه ، عند ساقيه الخلفيتين .

همس روستوف وهو يدوّر شفتيه :

ـــ يليوليوليو ..!

فوثبت الكلاب ، وقد نفضت نفسها نفضة واحدة من حلقات اللجُم ، وأتأرت آذانها . وفرغ كاراى من هرش مؤخرة جسمه ، ومد أذنيه ، ونهض وذيله الذى يرتعش تتدلى منه خصل من الشعر المبللة .

ساءل روستوف نفسه إذ كانت الذئبة تدنو منه آتية من الغابة :

ـــ هل أُطلقُ الكلاب ؟ .

وفجأة تغير مظهر الذئبة جميعاً : ارتجفت إذ رأت ما لعلها لم تره قط من قبل ـــ عينين انسانيتين مثبتتين بها تحدقان إليها ، وأدارت رأسها قليلا نحو روستوف ، وكفت .

وبدا كأنما الذئبة تقول لنفسها :

— إلى الخلف أم إلى الأمام ؟ إه ، لايهم ، إلى أمام ...

تحركت دون أن تنظر حوالها مرة أخرى تقفز فى هرولة هادئة ، طويلة الخطى ، هرولة يسيرة سهلة وإن كانت وطيدة راسخة .

صرخ نيكولاس بصوت ليس منه :

— يليوليو !

فمرق جواده الكريم ، من تلقائه ، مندفعاً ينحدر على التل ، يثب فوق الأخاديد حتى يسبق الذئبة ويقطع عليها الطريق ، ومرت به الكلاب تسبقه عدواً . لم يسمع نيكولاس صرخته نفسها ، ولا أحس أنه كان يعدو ، ولا رأى الكلاب ولا الأرض التى كان يخطفها عدواً ، فما كان يرى إلا الذئبة التى أسرعت ، وانطلقت تتواثب فى نفس الاتجاه ، على طول الوادى الغائر وكان أول ماظهر هى ميلكا ، بعلاماتها السوداء ، وأطرافها القوية ، تلاحق الذئبة وتدنو منها . وراحت ميلكا تقترب وتقترب . لقد كانت الآن خلفها مباشرة ، لكن الذئبة أدارت رأسها فواجهتها ، وبدلا من أن تسرع ميلكا كعادتها ، رفعت ذيلها فجأة وتصلبت ساقاها الأماميتان .

فصرخ نيكولاس :

— يليو ليو ليو ليو..!

فاندفع ليوبيم الكلب الأصهب ، من خلف ميلكا ، ووثب فى جماح ونفرة على الذئبة ، وأمسكها من أطرافها الخلفية ، لكنه رجع واثباً إلى جنب على الفور ، فى هلع ، فقد أقعت الذئبة ، وعرّت أسنانها وهى تجز عليها ، ثم نهضت ثانية وراحت تتواثب إلى الأمام ، تتبعها ، على بعد ، كل كلاب البورزوا دون أن تقترب منها بأكثر من ذلك البعد .

كان نيكولاس مازال يصرخ بصوت أبح ، ودار بذهنه :

— سوف تهرب ! لا ، هذا مستحيل !

وصاح وهو يدير البصر بحثا عن البورزوا العجوز الذى كان الآن معقد أمله الوحيد :

— كاراى ، يليوليو ..!

فمط كاراى من جسمه بكل ما أبقت له السنّ من قوة ، وراقب الذئبة، وعدا إلى جنب ، ليقطع الطريق عليها . لكن سرعة وَثبَات الذئبة ، وما فى جرى البورزوا من سرعة أبطأ ، أظهرت بوضوح أن كاراى أخطأ حسابه . وكان فى وسع نيكولاس الآن أن يرى الغابة ، على غير مبعدة منه ، فاذا أدركتها الذئبة فهى لاشك ناجية . ولكنه رأى كلاب الصيد ، والصيادين يقبلون نحوه ، يعدون متجهين إلى الذئبة مباشرة ، أو يكادون . ما زال هنـاك أمل . واندفع كلب طويل الجسم ضارب إلى الصفرة من كلاب البورزوا ، كلب لم يكن نيكولاس يعرفه . وانطلق جامحاً نحو الذئبة من الأمام ، وأوشك أن يقلبها على ظهرها . لكن الذئبة نهضت بأسرع مما كان ينتظر أحد ، وجزت على أسنانها فى شراسة ، وطارت إلى الكلب الأصفر فسقط هذا وهو يطلق صرخة من العواء الثاقب ، ورأسه على الأرض ، ينزف من طعنة فى جنبه .

صاح نيكولاس وهو ينوح :

— كاراى ! أيها العجوز ..!

كان من نتيجة هذا التأخير الذى سببه الكلب الأصفر إذ قطع على الذئبة الطريق ، أن صار الكلب العجوز بشعره اللبد المدلى من فخذيه ، على بعد خمس خطوات منها . وكأنما أحست الذئبة بالخطر ، فأدارت عينيها إلى كاراى ، ودفعت بذيلها تضمه ضماً وثيقاً بين ساقيها وزادت من سرعتها. وهنا لم ير نيكولاس إلا أن شيئاً ما قد حدث بكاراى . كان الكلب فجأة فوق الذئبة ، وكانا يتدحرجان معاً متحدرَيْن على أخدود يقع أمامهما مباشرة .

أما تلك اللحظة ، عند ما رأى نيكولاس الذئبة تصارع الكلاب فى الأخدود ، بينما كان فى الوسع رؤية شعوها الأغبر ، وساقها الخلفية الممدودة ، من تحت الكلاب ، ورأسها المفزع المختنق وقد امتدت أذناها إلى خلف ، فقد كان كاراى قد أنشب أسنانه فى حلقها ـ تلك اللحظة كانت أسعد لحظة فى حياة نيكولاس كانت يده على قوس السرج ، وكان على أهبة الاستعداد للنزول من على جواده الآن ، وطعن الذئبة ، عندما دفعت الذئبة برأسها فجأة ، من بين حشد الكلاب المتكومة ، وبعدئذ كان مخلباها الاماميان على حافة الأخدود . وخبطت بأسنانها ـ لم يعد كاراى الآن يمسكها من العنق ـ ووثبت بحركة من ساقيها الخلفيتين ، وأفلتت من الأخدود . فلما خلصت نفسها من الكلاب ، ورفعت ذيلها ثانية بين ساقيها ، مضت إلى الأمام . أما كاراى فقد قف شعره ، وكان يتسلق الأخدود بصعوبة ، فعساه كان قد جرح أو أصابته رضوض .

هتف نيكولاس فى يأس :

ـــ آه يا إلهى ! لماذا ؟

كان صيادوا « العم » يعدون من الجانب الآخر ، فى طريق الذئبة ، وأوقف الكلاب مرة أخرى سير الوحش . ومرة أخرى أحيط بها .

كان نيكولاس وتابعه ، و « العم » وصيادوه يركبون الآن جميعاً حوالى الذئبة ، صارخين :

ـــ يليوليو !

ويتصايحون ، على استعداد للنزول فى كل مرة تقعى فيها الذئبة ، ويتقدمون ثانية كلما نفضت نفسها أو انطلقت إلى الأمام نحو الغابة التى سوف تجد فيها الأمن والخلاص .

وكان دانيل ، منذ بدأت هذه المطاردة قد سمع صيحات « يليوليو » واندفع خارجاً من الغابة ، ورأى كاراى يمسك بالذئبة ، فكبح حصانه

على ظن أن الأمر قد انتهى . فلما رأى أن الفرسان لم يتراجعوا ، وأن الذئبة قد نفضت نفسها وجرت فى طلب النجاة ، أطلق دانيل حصانه الأصهب يجرى لا فى اتجاه الذئبة ، بل فى اتجاه الغابة مباشرة ، كما فعل كاراى تماماً عندما اندفع يقطع عليها الطريق . فكان من أثر ذلك أن وجد نفسه يعدو نحو الذئبة فى نفس اللحظة التى كانت كلاب « العم » فيها قد أوقفتها للمرة الثانية .

انطلق دانيل يعدو ، فى صمت ، ممسكاً بخنجر عار فى يده اليسرى ، ضارباً جنبى فرسه الأصهب المكدودين بسوطه ، كما لو كان يضربه بمذراة .

لم ير نيكولاس دانيل ولا سمعه حتى مرّ به الحصان الأصهب ، وهو ينهج بنفَس ثقيل ، وتجاوزه ، وسمع سقطه جسم ، ورأى دانيل جاثماً على ظهر الذئبة ، بين الكلاب ، معالجاً أن يمسك بها من أذنيها . وكان واضحاً للكلاب ، والصيادين ، وللذئبة نفسها ، أن الأمر قد انتهى الآن . كانت الذئبة التى استبد بها الروع تضغط أذنيها إلى الخلف ، وتحاول أن تنهض واقفة ، لكن الكلاب لصقت بها . نهض دانيل قليلاً ، وخطا خطوة ، وسقط على الذئبة بكل ثقله ، كأنما يرقد ليستريح ، وأمسكها من أذنيها . وهمّ نيكولاس بأن يطعنها ، فهمس دانيل :

— لاتفعل . سوف نربطها .

وغيرّ من وضعه ، ووطأ عنق الذئبة بقدمه . ودفع بعصا بين فكيها . وأوثقت بطوق من أطواق الكلاب ، كما لو كانت تلجم به ، وربطت سيقانها معاً ، وتدحرج دانيل عليها مرة أو مرتين ، من جانب إلى جانب ..

وكانت وجوههم سعيدة ، منهكة ، عندما وضعوا الذئبة العجوز على حصان راح يجفل ويزفر ، وصاحبوها والكلاب تنبح بها ، إلى المكان

الذى اتفقوا على أن يلتقوا فيه . كانت كلاب الصيد قد قتلت جروين من جرائها ، وقتلت كلاب المطاردة ثلاثة جراء . والتقى الصيادون حول غنيمتهم ، وراحوا يقصون حكاياتهم ، وجاء الجميع لينظروا إلى الذئبه التى كان رأسها العريض الجبهة مدلى إلى تحت ، تعض العصا المحشورة بين فكيها ، وتبرق بعينين عظيمتين واسعتين زجاجيتين إلى هذا الحشد من الكلاب والناس تحيط بها ، فاذا مسها شىء نفضت سيقانها الموثقة ، ونظرت إلى الجميع ، بوحشية ولكن ببساطة . وركب الكونت روستوف الشيخ أيضاً ، ولمس الذئبة . وقال :

— آه ، يالها من ذئبة هائلة !

وسأل دانيل الذى كان يقف على مقربة :

— ذئبة هائلة ، هه ؟

فأجاب دانيل وهو يرفع قلنسوته بسرعة :

— نعم ، يا صاحب السعادة .

وتذكر الكونت الذئبة عندما كان قد تركها تفلت منه ، ولقاءه بدانيل ، وقال :

— آه .. ولكنك فتىً حاد الخُلق يا صاحبى !

فلم يجبه دانيل إلا بابتسامة خجلة ، وديعه ، وودودة كابتسامات الاطفال ...

الفصل السادس

عاد الكونت الشيخ إلى البيت ، ووعدت ناتاشا وپيتيا بالعودة سريعاً ، ولكن النهار كان ما زال فى بُكرته ، فاستمر الصيد . وفى الظهيرة وضعوا كلاب الصيد فى وادٍ كثيف بوفرة من الشجر الغض الفتى ، ووقف نيكولاس فى حقل ليس فيه نبات ، حيث كان بوسعه أن ترى كل المكلفين بكلابه .

وكان فى مواجهة حقل زُرع بشيلم الشتاء ، وهناك وقف صيادوه وحدهم فى أخدود من الأرضٍ خلف شجرة بُندق . وأما أن أطلق سراح كلاب الصيد حتى سمع نيكولاس كلباً يعرفه منهم ، هو ڤولتورن ، ينبح دلالة على أنه شمّ صيداً ، فى فترات متناوبة ، تلحق به كلاب أخرى ، تكفّ حيناً وتنبح حيناً . وبعد هنية سمع صيحة من الوادى المشجر بأنهم قد وجدوا ثعلبا ، واندفع قطيع الكلاب بأسره ، وقد انضم بعضه إلى بعض ، على طول الوادى فى اتجاه حقل الشعير ، بعيداً عن نيكولاس .

رأى الرجال المكلفين بالكلاب ، فى قلنسواتهم الحمراء ، يعدون على حافة الوادى ، بل رأى كلاب الصيد ، وتوقع أن يظهر الثعلب ، فى أى لحظة ، من حقل الشعير المواجه .

تحرك الصيادون الذين كانوا واقفين فى منخفض الأرض ، وأطلقوا كلاب المطاردة ، ورأى نيكولاس ثعلباً أحمر غريب الشكل قصير السيقان كثّ الذيل يندفع عبر الحقل فى جرى جادٍ متتابع الخطى . كانت كلاب المطاردة تلاحقه وتدنو منه وقد اقتربت منه الآن ، فراغ منها فى الحقل ، واندفع يجرى فى انحناءات تزداد حدةً وتعرجاً ، يجر خلفه ذيله الكثّ ، وإذا كلب غريب أبيض من كلاب المطاردة يعرق خلفه ، ويتلوه كلب آخر أسود ، وإذا بكل شىء يختلط ويشيع فيه الاضطراب . وتحلقت كلاب المطاردة فى حلقة على شكل النجم حول الثعلب ، لا تكاد جسومها تهتز ، وقد أدارت ذيولها بعيدة عن وسط الحلقة . فعدا صيادان إلى الكلاب ، أحدهما يرتدى قلنسوة حمراء ، والآخر غريب فى حلة خضراء .

ففكر نيكولاس :

— ماهذا ؟ من أين جاء هذا الصياد ؟ أنه ليس من رجال «العم» .

أمسك الصيادون بالثعلب ، لكنهم ظلوا هناك فترة طويلة دون أن يوثقوه بسرج الحصان . ووقفت خيلهم ، ملجمة عالية السرج ، بالقرب

منهم ، ورقدت هناك أيضاً كلابهم . كان الصيادون يلوحون بأذرعهم ، ويقولون عن الثعلب شيئاً . ثم جاء من تلك البقعة صوت بوق ، ينفخ العلامة المتفق عليها فى حالة الخصام .

قال سائس نيكولاس :

— هذا صياد آل إيلاچين يختصم مع صيادنا إيڤان .

فأرسل نيكولاس بالرجل ينادى إليه ناتاشا وپيتيا ، وركب بخطى السير الوئيد إلى حيث كان الكلابون يجمعون كلاب الصيد . وجرى كثيرون من الحقل إلى البقعة التى اشتجر فيها العراك .

ترجل نيكولاس ، ووقف بالقرب من كلاب الصيد مع ناتاشا وپيتيا بعد أن ركبا إليه ، وراح ينتظر كيف ينجلى الأمر . وخرج من الشجيرات الصياد الذى كان مشتبكاً فى العراك ، وركب إلى السيد الشاب ، وقد أوثق الثعلب بمذيلة فرسه . ورفع قلنسوته ، وهو مازال على مبعدة ، وعالج أن يتكلم باحترام ، لكنه كان شاحباً مبهور النفس ، وكان غاضب الوجه . وكانت إحدى عينيه سوداء مرضوضة ، لكنه لم يكن يحسها فى الأرجح .

سأله نيكولاس :

— ماذا جرى ؟

قال الصياد ، مشيراً إلى خنجره ، وما زال فى ظنه ، على الأغلب ، أنه يتحدث إلى خصمه :

— معقول هذا ، أن تقتلوا ثعلباً أمسكت به كلابنا ! وكلبتى الرمادية هى التى أمسكته ! تذهبون للمحكمة ، حقاً ..! إنه مدّ يده يحاول أن يخطف الثعلب ، فضربته بالثعلب ضربة . وهاهوذا على سرجى ! أتريد أن تعرف مذاقه ... ؟

فلم يقف نيكولاس ليتحدث إلى الصياد ، بل طلب من أخته وپيتيا أن ينتظراه ، وركب إلى البقعة التى كانت تقف فيها جماعة صيد أعدائه ، آل

إيلاچين
ومعنى الصياد المنتصر إلى الحقل ، حيث أحاط به أصدقاؤه يتساءلون عن الحكاية ، وراح يحكى مغامرته .

كانت الحقيقة أن إيلاچين قداختصم مع آل روستوف. ووصل نزاعهما إلى المحكمة،وكان يصيدفى أماكن جرت العادة بأن تكون لآل روستوف ، وكان الآن قد أرسل رجاله ، كما لو كان ذلك عن عمد ، إلى نفس الغابات التى يصيد فيها آل روستوف ، وسمح لتابعه أن يخطف ثعلباً طاردته كلاب آل روستوف .

وكان نيكولاس ، على أنه لم ير إيلاچين أبداً ، يمقته من كل قلبه ، فى غلوّه المألوف وشططه عن التزام القصد من أحكامه ، وذلك لأخباركانت تصله عن عنف هذا الرجل وركوبه رأسه ، فكان يرى فيه أعدى أعدائه . ركب إليه وقد هاجه الغضب ، ممسكاً بسوطة مسكة حازمة ، وقد استعد كل الاستعداد لاتخاذ أبعد الخطوات استماتةً وحسماً لينزل العقاب بعدوّه .

وما أن تجاوز زاوية فى الغابة ، حتى ركب إليه سيد بدين على رأسه قلنسوة من جلد القندس، يمتطى حصاناً قسيا أدهم قاتم السواد ، ويصحبه خادمان للصيد .

وبدلاً من أن يجد نيكولاس عدواً فى إيلاچين ، رأى فيه سيداً كيّساً مجاملاً شغوفاً جد الشغف بالتعرف إلى الكونت الشاب . فقد ركب إليه إيلاچين ، ورفع له قلنسوته المتخذه من جلد القندس على سبيل التحية ، وقال أنه آسف جد الأسف لما حدث وأنه سوف يوقع العقاب بالرجل الذى سمح لنفسه بأن يستولى على ثعلب طاردته كلاب أخرى، وأنه يأمل أن تتوثق معرفته بالكونت الشاب ، ودعاه لأن يزوره . خشيت ناتاشا أن يرتكب أخوها فعلة مروعة ، فتبعته وهى مضطربة بعض الشىء ، فلما رأت العدوين يتبادلان التحيات الودية ركبت إليهما. ورفع إيلاچين قلنسوته إلى ارتفاع

أكبر ، تحية لناتاشا ، وقال بابتسامة لطيفة أن الكونتيسة الصغيرة تشبه ديانا في حبها للصيد وفي جمالها الذي سمع عنه الكثير ، على السواء .

وأراد إيلاچين أن يكفر عن خطأ صياده ، فألحف على آل روستوف أن يأتيا إلى مرتفع من الأرض يملكه ، على بعد نحو ميل ، كان يحتفظ به عادة ، وقال أنه يموج بالأرانب البرية . فوافق نيكولاس ، وتحرك فريق الصيد وقد تضاعف الآن

كان الطريق إلى مرتفع إيلاچين يمر عبر الحقول . فانتظم خدم الصيد في صف مستقيم ، وركب السادة معاً ، وظل «العم» ، وروستوف ، وإيلاچين يختلسون النظرات إلى كلاب بعضهم البعض ، حريصين مع ذلك على ألا يلحظهم صحبهم ، محاولين أن يتبينوا فيها المنافسين الخطرين لكلابهم .

وراع روستوف على الأخص جمال كلبة صغيرة أصيلة المحتد مرقطة ببقع حمراء ، في طوق إيلاچين ، رقيقة الجسم ولكن عضلاتها في قوة الصلب ، ولها خطم رقيق وعينان نجلاوان جاحظتان . كان قد سمع عن سرعة كلاب المطاردة التي يملكها إيلاچين ، ورأى في تلك الكلبة الباهرة منافساً خطراً لميلكا كلبته .

وفي وسط حديث هادئ استهله إيلاچين عن محصول ذلك العام اومأ نيكولاس إلى الكلبة المرقطة بالأحمر ، وقال بلهجة لامبالاة فيها :

ـــ كلبة صغيرة رائعة هذه ! أسريعة هي ؟

فأجاب إيلاچين ، بلا مبالاة ، مشيراً إلى كلبته إيرزا التي كان قد اشتراها من جار له في العام السابق بثلاثة عائلات من أقنان البيوت :

ـــ هذه ؟ نعم ، كلبة طيبة . تحصل على ما تجرى خلفه .

وواصل الحديث الذي كان قد بدأه :

ـــ وإذن فقد كان المحصول عندكم أيضا لا يدعو للكثير من الفخر يا كونت ؟

ورأى من حسن الأدب أن يرد على مجاملة الكونت الشاب ، فنظر إلى كلابه ، واختار منها ميلكا التى استرعت انتباهه بجرمها العريض، وقال :

ـ هذه الكلبة المرقطة بالسواد عندكم رائعة ـ حسنة البنية !

فأجاب نيكولاس :

ـ نعم ، إنها سريعة بما يكفى .

ودار بذهنه :

ـ لو أن أرنباً كاملة النمو عبرت الحقل الآن ، لأريتك معدنها !

واستدار إلى سائسه ،وقال أنه سيعطى كل من يعثر على أرنب روبلاً .

وواصل إيلاچين حديثه :

ـ لست أفهم كيف يغار بعض الرياضيين من بعضهم البغض بشأن الصيد والكلاب . أما أنا فأستطيع أن اقول لك يا كونت ، أننى أستمتع بالركوب فى مثل هذا الصَحْب .. فماذا يفضل ذلك ؟

ورفع قلنسوته مرة أخرى تحية لناتاشا ، وواصل :

ـ أما أن نعدّ جلود الصيد ، وأن نأخذ ما نصطاد ، فذلك لا يهمنى .

ـ بالطبع لا !

ـ أو أن يثور المرء لأن كلاب الآخرين ، لا كلابى ، هى التى أمسكت بشىء ..! كل ما يهمنى هو الصيد والمطاردة ، أليس كذلك يا كونت ؟ ذلك أننى أرى أنه ...

وعندئذ جاءت صيحة ممدودة من أحد حرس كلاب المطاردة ، وقد وقف :

ـ آ ... تو !

كان يقف على أكمة من الأرض فى وسط الهشيم يرفع سوطه عالياً ، ثم كرر صيحته الممطوطة :

ـ آ ... تو !

كانت هذه الصيحة ، والسوط المرفوع ، تعنى أنه رأى أرنبا مُقعية .

قال إيلاچين ، فى غير اهتمام :

— آه ، لقد وجد أرنباً ، فيما أظن . حسناً اذن ، فلنطاردها ، يا كونت ..

فأجاب نيكولاس ، وقد رأى فى إيرزا ، وروجاى الحمراء كلبة «العم» منافسين لم تتح له الفرصة قط فى أن يجربهما مع كلابه :

— نعم ، يجب أن نركب إليها ... هل نطاردها معاً ؟

ودار بذهنه ، وهو يركب مع « العم» وإيلاچين ، فى اتجاه الأرنب :

— وهب أنهما تفوقا على ميلكا فوراً ؟

سأل إيلاچين ، وهو يقترب من الكلاّب الذى رأى الأرنب :

— أرنب كبيرة كامله النمو ؟

واستدار ، بلهجة الاضطراب ، وصفّر لإيرزا ، وقال « للعم » :

— وأنت يا ميشال نيكانوروڤيتش ؟

كان الأخير يركب وعلى وجهه دلائل الجهامة والقطوب ، فقال :

— كيف أنضم اليكما ؟ فأنت قد اشتريت كل كلب من كلابك بقرية كاملة ! بالضبط ، هيا بنا ! كلابكم تساوى الآلاف جربوا كلابكم مع بعضكم البعض ، وسوف أشهدكم أنا !

وصاح :

— روجاى ، هي ، هي ! روجايوشكا !

فأفصح بنداء التدليل لكلبه ، من غير قصد ، عن حبه له ، وما ينيط عليه من آمال . رأت ناتاشا وأحست انفعال الرجلين المجوزين ، وأخيها ، على جهدهم لإخفائه ، فهاجها هذا الانفعال أيضاً .

وقف الصياد فى منتصف المرتفع من الأرض ، يمسك بسوطه . وركب إليه السادة بخطى السير العادية ، أما كلاب الصيد التى كانت بعيدة عن

الأفق فقد استدارت بعيداً عن الأرنب ، وابتعد الكلابون أيضاً ، وإن لم يبتعد السادة . كانوا جميعاً يتحركون على تؤدة وفى رصانة وهدوء .

سأل نيكولاس وهو يركب نحو مائة خطوة مقترباً من الكلاّب الذى كان قد رأى الأرنب :

— إلى اين تتجه ؟

على أنه قبل أن يحر الكلاّب إجابة ،كانت الأرنب شمت البَرَد الذى سوف تثلجه السماء فى الصباح التالى ، فلم تستطع الإخلاد إلى الراحة ، ووثبت . اندفع الكلاب فى الأطواق ، منحدرةً على التل ، نابحة بأقصى أصواتها ، تطارد الأرنب . أما كلاب المطاردة التى لم تكن فى الأطواق فقد اندفعت من كل جانب فى أثر كلاب الصيد والأرنب . وكان فريق الصيد جميعاً يتحرك وئيداً فانطلقت صيحة :

— قف !

ونودىَ على كلاب الصيد ، بينما راح سيّاطو كلاب المطاردة يعبرون الحقل صائحين : آ ... تو !

وقد أطلقوا كلاب المطاردة فى أثر الأرنب . وطار إيلاچين ، بالرغم من طبعه الهادىء ، ونيكولاس ، وناتاشا ، والعم ، غير آبهين جميعاً إلى أين يذهبون ، وكيف ، لا يرون إلا كلاب المطاردة ، والأرنب ، ولا يخشون إلا أن يفقدوا مرأى المطاردة ، لحظة واحدة . كانت الأرنب التى أفزعوها قوية وسريعة . فلما وثبت ، لم تنطلق تعدو على الفور ، بل مدّت أذنيها وأصاخت السمع إلى الصياح ووطء السنابك الذى كان يدوى ويتردد من كل جانب فى نفس الوقت . ووثبت نحو عشرة وثبات فى غير كبير سرعة ، وتركت كلاب المطاردة تدنو منها ، ثم اختارت اتجاه طريقها فى النهاية ، وتحققت الخطر المحيق بها ، فأرخت أذنيها على صدغيها ، واندفعت إلى الأمام لا تلوى على شىء . كانت ترقد فى الهشيم ،

وكانت تقع أمامها الحقول التى زُرعت بزرعة الخريف ، حيث كانت التربة لينة طرية . وكان كلبا البورزوا اللذان رأياها أقرب الكلاب إليها ، فكانا أول من رآها وطاردها ، ولكنهما لم يبعدا قبل أن تتجاوزهما إيرزا المرقطة بالأحمر ، كلبة إيلاچين ، ودنت منها ، وطارت إلى الأرنب بسرعة مخيفة وسددت بوزها إلى ذنب الأرنب ، وخيل إليها أنها قد أمسكت بها . فتدحرجت كأنها كرة . أما الأرنب فقد قوست ظهرها وواصلت عدوها واثبة بأسرع مما كانت تفعل . واندفعت ميلكا من خلف إيرزا ، مرقطة بالأسود ، عريضة الحقوين ، وراحت تقترب من الأرنب بسرعة .

فارتفعت صيحة نيكولاس الظافرة :

— ميلاشكا ، حبيبتى !

وكان يلوح أن ميلكا سوف تثب على الأرنب فى التو ، لكنها جاوزتها ، وانطلقت ميلكا فسبقت الأرنب وطارت عبرها . كانت الأرنب قد أقعت على الأرض . فأدركتها إيرزا الكلبة الجميله مرة أخرة ، ولكنها عندما دنت من ذنب الأرنب كفت كأنها تقيس المسافة ، حتى لاترتكب خطا هذه المرة ، بل تقبض على ساقيها الخلفيتين مباشرة

فصاح إيلاچين ينوح بصوت ليس من صوته فى شىء :

— إيرزا حبيبتى !

على أن إيرزا لم تلبّ نداءه ، ففى اللحظة التى كانت لتمسك فيها بفريستها على وجه الدقة ، تحركت الأرنب ، ومرقت على الممر بين شعير الشتاء ، والهشيم ، وأصبحت إيرزا ، وميلكا ، سابقتين عليها مرة أخرى ، وراحتا تجريان كأنهما فرسى رهان ، وراحتا تدنوان من الأرنب ، ولكن الأرنب كان يسهل عليها أن تجرى على الممر ، ولم تقترب منها الكلبتان بالسرعة المنشودة .

وعندئذ جاء صوت ثالث :

— روجاى ، روجايوشكا !

ولحق بالكلبتين الأماميتين كلب العم الأصهب يشد جسمه حتى آخر طاقته ، ويقوس ظهره . ثم رفع نفسه فتجاوزهما وجرى سابقاً عليهما ، وبغض النظر عن الجهد المروع ، زاد من سرعته حتى اقترب من الأرنب ، واصطدم بها فألقى بها بعيداً عن الممر ، إلى حقل الشعير ، ثم زاد من سرعته وبشكل أكثر شراسة ، وخاض إلى ركبته فى التربة الموحلة ، وكان كل ما يسع المرء أن يراه هو كيف كان يتدحرج الكلب مع الأرنب ، وقد أحدقت به حلقة من كلاب المطاردة . وبعد لحظة كان الجميع قد شدّوا أعنّتهم حول الكلاب . ولم يترجل إلا العم الذى فاض به السرور ، وقطع قدم الأرنب ، وهز الأرنب حتى ينفض عنها الدم المتساقط ، وألقى حواليه نظرات قلقة ، وعيناه مضطربتان ، بينما راحت ذراعاه ترجفان دون أن يعرف فيم يتكلم وإلى من يوجه الخطاب :

— بالضبط . هيا بنا ...! هاك كلب حقاً .! هاك ، إنه غلبها جميعاً . الكلاب التى تساوى ألف روبل أو لا تساوى إلا روبلاً واحداً . بالضبط ، هيا بنا .!

وهو ينهج ، وينظر حواليه بحنق مستشيط ، كأنه يشتم شخصاً ما ، وكما لو كانوا جميعاً أعداءه الذين أهانوه ، فلم ينجح فى أن يبرر نفسه إلاّ الآن فقط .

— هاكم كلابكم التى تساوى ألف روبل ... بالضبط ، هيا بنا .

وقال وهو يلقى بقدم الأرنب الموحلة إلى الكلب :

— روجاى ، هاك قدمٌ لك ! استحققتها أنت . بالضبط ، هيا بنا .

قال نيكولاس ، وهو لا يصغى إلى أحد ، بغض النظر عما إذا كان ثمة من يصغى إليه :

— أجهدت نفسها ، لحقته بنفسها ثلاث مرات .

قال سائس إيلاجين :

— وما جدوى الجرى بهذه الطريقة ؟

وكان إيلاجين يقول فى نفس الوقت ، منهور النفس من جريه واهتياجه:

— أفلتت منها مرة ، ودفعتها بعيداً ، كان أى كلب حقير لا أصل له بوسعه أن يأخذها بعد ذلك .

وكانت ناتاشا ، فى نفس الوقت ، تصرخ مبتهجة ، فى نشوة طاغية ، دون أن تلتقط نَفَسها ، صرخات ثاقبة ، بلغ من حدّتها أن طنّت لها آذان الجميع . وكانت بصرختها تلك تعبر عما كان كل الآخرين يعبرون عنه بكلامهم جميعاً فى نفس الوقت ، وكانت صرخة من الغرابة بحيث كانت لتخجل من مثل هذه الصرخة الوحشية الشرسة ، فى أى وقت آخر ، وبحيث كان الجميع ليدهشوا لها . ولفّ « العم » الأرنب بنفسه ، وألقاها برشاقة ودقة على ظهر حصانه ، كما لو كان يعنى ، بتلك الحركة ، أن يقرع الجميع ، واعتلى حصانه الأشقر كما لو لم يكن يريد أن يتحدث مع أحد ، وركب مبتعداً . فتبعه الآخرون جميعاً ، مخذولين خجلين ، ولم يكن بوسعهم أن يستعيدوا ما كانوا يتكلفونه من اللامبالاة إلا بعد وقت طويل . وظلوا وقتاً طويلا ينظرون إلى « روجاى » الأحمر ، وقد تناثرت على ظهره بقع الطين ، وراحت حلقة لجامه تصلصل ، وهو يسير خلف حصان « العم » مباشرة ، وقد بدا عليه مظهر الفاتحين الهادئين .

كان يلوح فى عينى كلب «العم» ، من مظهره أنه يقول :

— إننى كسائر الكلاب طالما لم يكن فى الأمر جرى ومطاردة ، أما إذا كان الأمر كذلك ، فحذار ..!

ولما ركب « العم » ، بعد ذلك بوقت طويل ، إلى نيكولاس ، وأخذ يحدثه ، أحس نيكولاس بالزهو ، لأن « العم » قد تنازل بالحديث إليه ، بعد ما حدث .

الفصل السابع

ودّع إيلاجين نيكولاس ، قرابة المساء . وقد وجد نيكولاس أنهم قد بعدوا عن البيت بعداً دعاه لأن يقبل دعوة « العم » أن تقضى جماعة الصيد ليلتها فى قريته الصغيرة ميخايلوفنا .

قال « العم » :

ـــ فإذا نزلتم بيتى ،كان ذلك خيراً وأفضل . بالضبط ، هيا بنا ! فأنت ترى أن الجو شاتٍ ، وفى استطاعتك أن ترتاح ، أما الكونتيسة الصغيرة ففى الوسع أن تعود للبيت فى زحافة .

قُبلت دعوة « العم » ، وأرسل أحد الصيادين إلى أوترادنيو فى طلب زحافة ، فى حين ركب نيكولاس وناتاشا وبيتيا إلى بيت « العم » .

اندفع نحو خمسة أقنان من خدم المنزل الرجال ، كباراً وصغاراً ، إلى الشرفة الأمامية ليرحبوا بسيدهم . واندفعت نحو عشرين امرأة من الأقنان ، عجائز وشابات ، وأطفال أيضا ، من وراء المدخل الخلفى ليلقوا نظرة على فريق الصيد . وكان وجود ناتاشا ـ امرأة ، سيدة ، وعلى متن حصان ـ يثير فضول الأقنان إلى حد أن جاء الكثيرون منهم إليها ، وراحوا يحدقون فى وجهها ، ويعقبون على هذا بالحديث ، فى غير خجل منها ، كما لو كانت شيئاً خارقاً فى استعراض ما ، لا كائناً إنسانياً بوسعه أن يسمع ويفهم ما يقال عنه .

ـــ آرينكا ! أنظرى ، إنها تركب على جنب ! ها هى ذى راكبة ، وثوبها متدلدل ..! أنظرى ، عندها بوق صغير للصيد !

ـــ يا للداهية ! أنظر سكينها !

ـــ كأنها تترية !

وتوجه أجسرهم قلباً بالحديث إليها مباشرة :

— كيف لم تقعى رأساً على عقب ؟

ترجل « العم » عند شرفة منزله الخشبي الصغير الذى كان يقوم وسط حديقة معشوشبة ، وبعد أن ألقى نظرة على خدمه صاح بصوت ذى سلطان أن يمضى كل من ليست إليه حاجة ، وأن تعد كل الترتيبات اللازمة لاستقبال الضيوف والزوار .

فتفرق الأقنان جميعاً . وأقبل « العم» ، فرفع ناتاشا من على حصانها ، وأخذ بيدها ، فرقى معها درج الشرفة الخشبي المترنح . وكان البيت ، بحيطانه الخشبية المتخذة من جذوع الأشجار ، من غير طلاء ، يفتقر إلى النظافة — لم يكن يبدو أن أولئك الذين يعيشون فيه ، يهدفون إلى الابقاء عليه نظيفاً لا شائبة فيه — على أنه لم يكن مهملاً كل الاهمال . وكان فى المدخل رائحة تفاح طازج ، وكانت جلود ذئاب وثعالب معلقة هنا وهناك .

تقدم « العم » ضيوفه عبر ردهة إلى بهو صغير به مائدة قابلة للطى ، وكراسى حمراء ، ثم إلى غرفة استقبال بها مائدة من خشب البتولا ، وأريكة ، ثم انتهى بهم إلى غرفته الخاصة ، حيث قامت أريكة رثة ممزقة الفَرْش ، وسجادة بالية ، وصور سوفوروف ، وأبيه وأمه ، ثم صورته فى الزى العسكرى . وكانت غرفة المكتب هذه تفوح بريح قوى من الطباق والكلاب . وطلب « العم » من زواره أن يجلسوا ويجعلوا من البيت بيتهم ، ثم خرج من الغرفة . ودخل « روجاى » الغرفة ، وما زال موحل الظهر ، ورقد على الأريكة ، وأخذ ينظف نفسه بلسانه وأسنانه . كان يخرج من غرفة المكتب ممر يُرى فيه حاجز به ستارة خلقة . وجاء من خلف الحاجز صوت ضحكات امرأة ، وهمساتها . خلع نيكولاس وبيتيا وناتاشا ما يتلففون به ، وجلسوا على الأريكة . واستند بيتيا على مرفقه ، وأخذته سِنة من النوم على الفور . وصمت نيكولاس وناتاشا . كان وجهاهما متوهجين ، وكانا فى غاية الجوع ، وفى غاية البهجة . نظرا إلى

أحدهما الآخر ـ فقد انتهى الصيد الآن ، وكانا في البيت ، وما عاد نيكولاس يرى ضرورة أن يبدى تفوقه ، باعتباره رجلاً ، على أخته ـ وغمزت له ناتاشا ، وما توانى أيهما في أن يطلق قهقهة مدوية من الضحك ، قبل أن يكون له عذر يتعلل به للضحك .

وبعد فترة جاء « العم » يرتدى حلة قوزاقية ، وبنطلونا أزرق ، وحذاءً عالياً صغيراً . وأحست ناتاشا أن هذا الزى الذى كانت تنظر إليه بدهشة وعجب فى أوترادنيو ، هو الزى المناسب اللائق على أتم وجه ، وليس بأدنى على الاطلاق من زى السهرة . وكان « العم » أيضاً فياضاً بالبهجة والسرور ، وما ساءه على الاطلاق أن يضحك الأخ والأخت ، فما كان يخطر له على بال قط أنهما قد يضحكان من طريقة حياته ـ فانضم إليهما فى مرحهما الصادر على السجية ، ومن القلب .

وقال :

ـ هذا حسن أيتها الكونتيسة الصغيرة ، بالضبط ، هيا بنا ! لم أر فى حياتى من يشبهها ! ركبتْ طول النهار كالرجال ، ثم هى منتعشة ، شأنها دائماً ..!

وهو يقدم إلى نيكولاس غليوناً ذا فم طويل ، ويأخذ بحركة مدربة من أصابع ثلاثة ، غليوناً آخر قصّرت ساقه .

وبعد أن دخل « العم » بقليل ، جاءت بنت حافية ـ كما كان واضحاً من صوت قدمها ـ ففتحت الباب ، ثم دخلت امرأة بدينة ، موّردة ، وسيمة ، فى نحو الأربعين من عمرها ، مزدوجة الذقن من سمنتها ، ولها شفتان حمراوان لحيمتان ، تحمل صينية كبيرة مثقلة . ورمقت الضيوف ، وكانت نظرتها ، وكل حركة تأتيها تشف عن الود والعزة الكريمة المضياف ، وانحنت باحترام وهى تبتسم ابتسامة لطيفة . وعلى الرغم من بدانتها الكبيرة الخارقة التى كانت تبرز صدرها وبطنها إلى

الأمام ، وتميل برأسها إلى الخلف ، فقد كانت هذه المرأة ـ وهى المشرفة على بيت « العم » ـ تخطو بخطى فى غاية الخفة . مضت إلى المائدة ، ووضعت الصينية ، ورفعت عنها الزجاجات والأطباق والأورديفر . بيديها البضتين البيضاوين ، بخفة ولباقة ، ونسقتها على المائدة . فلما فرغت خطت إلى جنب ، ووقفت إلى الباب ، وعلى وجهها ابتسامة . وكأنما تقول لروستوف :

ـــ هذه أنا . إنها أنا ! أتفهم « العم » الآن ؟

وكيف كان بوسع المرء ألا يفهم ؟ لم يكن نيكولاس وحده يفهم ، بل فهمت ناتاشا أيضاً معنى الغضون الخفيفة التى سرت فى جبهة « العم » ، وابتسامته الراضية السعيدة التى زمّت شفتيه قليلاً ، عند ما دخلت أنيسيا فيدورفنا . كان على الصينية زجاجة من نبيذ الأعشاب ، وأنواع شتى من الفودكا ، وشىء من عش الغراب المخلل ، وفطائر من الشعير واللبن الحليب بالزبدة ، وعسل النحل ، وشمع النحل ، وشراب العسل المخمّر ، وشراب العسل الفوّار . والتفاح ، والجوز ـ نيئاً ومشوياً ـ وحلوى من الجوز والعسل . وبعد ذلك أتت بدجاج مشوىّ لتوّه ، ولحم خنزير . ومربىّ مسقية بالعسل ، ومربىّ مسقية بالسكر .

كان ذلك كله من ثمرات عمل أنيسيا فيدورفنا فى البيت ، وقد جمعته بنفسها وأعدته . كانت نكهته جميعاً ، ومذاقه ، تفوح بنكهة أنيسيا فيدورفنا نفسها ، مذاق من العصير الوافر ، والنظافة ، والبياض ، والابتسامات الحلوة .

وكانت ماتنى تقول ، إذ تقدمّ لناتاشا إحدى أطايبها تلو الأخرى :

ـــ تفضلى ياسيدتى الكونتيسة الصغيرة !

أكلت ناتاشا من كل شىء ، ودار بذهنها أنها لم تأكل فى حياتها قط ، ولا رأت ، مثل هذه الفطائر المسقية باللبن والزبد ، ولا مثل هذه المربىّ

الشذية العبق ، ولا مثل حلوى الجوز والعسل هذه ، ولا هذا الدجاج ، فى أى مكان . ثم خرجت أنيسيا ڤيدروڤنا من الغرفة .

وبعد العشاء ، راح روستوف و « العم » يتكلمان وهما يشربان البراندى المصنوع من الكريز ، عن الصيد فيما مضى وفيما هو آت ، عن روجاى ، وعن كلاب إيلاچين ، بينما جلست ناتاشا قائمة العود ، على الأريكة ، تصغى إليهما متألقة العينين . حاولت أن توقظ پيتيا عدة مرات ، لكى يأكل شيئاً ، لكنه كان يغمغم بكلمات غير مستبينة دون أن يستيقظ . كانت ناتاشا تحس نفسها سعيدة خفيفة القلب فى هذا الجو الطريف ، حتى لقد كانت تخشى أن تصل زحافتها بأسرع مما ينبغى . صمت « العم » فترة وجيزة ، كما يحدث غالبا عندما يستقبل المرء أصدقاء فى بيته لأول مرة ، ثم قال مجيباً عن سؤال كان يدور بخلد ضيوفه :

— هذه كما ترون هى الطريقة التى أنهى بها أيامى ... سوف يأتى الموت . بالضبط ، هيا بنا ! كل شىء إلى زوال . فلماذا نلحق الضرر بأى إنسان ؟

كان وجه « العم » ، إذ يقول هذا ، عامراً بدلالة عميقة ، بل عامراً بالوسامة والجمال . وتذكر روستوف ، عن غير قصد ، كل ما سمعه عنه من خير يتناقله أبوه والجيران . كان « العم » طائر الصيت ، فى المقاطعة بأسرها ، بأنه من أشرف الناس وأنزههم عن الغرض على شذوذ أطواره . كانوا يستدعونه ليفض المنازعات العائلية ، ويختارونه وصياً ، ويعمدون إليه بأسرارهم ، وينتخبونه قاضياً ، أو فى غير ذلك من المناصب ، لكنه كان دائماً يرفض باصرار كل منصب رسمى ، ويقضى الخريف والربيع فى الحقول على متن حصانه الخصى الأشقر ، ويلتزم داره فى الشتاء ، وفى الصيف ينام فى حديقته المعشوشبة الوافرة الزروع .

— لماذا لاتلتحق بوظيفة فى الحكومه ياعمى ؟

ـــ فعلت ذلك مرة ، ولكنى تخليت عنه . لست أليق بذلك . بالضبط ، هيا بنا ! لست أفهم فيه رأساً من ذيل فما عندى مخ لذلك ـ فيما بيننا . أما الصيد فهذا شيء آخر ـ بالضبط ، هيا بنا !

ثم صاح :

ـــ افتح الباب هناك ! لماذا أغلقته ؟

كان الباب فى نهاية الممر يفضى إلى غرفة الصيادين ، كما كانوا يطلقون على غرفة خدم الصيد .

سمعت دبدبة أقدام حافية تجرى سريعة ، ثم فتحت الباب المفضى إلى غرفة خدم الصيادين يدٌ غير مرئية ، ومن الغرفة جاءت أصوات صافية من «البلالايكا»(*) يعزف عليها عازف من الواضح أنه أستاذ فى فنه . وكانت ناتاشا تصغى إلى هذه النغمات منذ بعض الوقت ، فخرجت الآن إلى الممر حتى تُحسن الاستماع .

قال العم :

ـــ هذا ميتكا ، حوذىّ ... اشتريت له بلالايكا حسنة : فأنا مغرم بها .

كان من عادة ميتكا أن يعزف على البلالايكا فى غرفة الصيادين عند ما يعود « العم » من صيده . وكان « العم » مولعاً بهذه الموسيقى .

قال نيكولاس ، فى شيء من التعالى غير المقصود ، كما لو كان اعترافه بأنه يحب مثل هذه الأصوات يخجله :

ـــ حسن جداً ! صحيح ، حسن جداً !

فقالت ناتاشا عاتبة ، وقد لاحظت نبرة أخيها :

ـــ حسن جداً ؟ لا ، ليس « حسناً جداً » ـ بل لذيذ ، لذيذ ، بكل بساطة !

فقد بدت لها هذه الأغنية ، فى تلك اللحظة ، كأنها أوج المتعة بالموسيقى

(*) البلالايكا آلة للموسيقى الشعبية الروسية ثلاثية الأوتار .

كما كان قد بدا لهما أن عش الغراب المخلل والعسل وبراندى السكريز عند « العم » ، أفضل شيء من نوعها فى العالم .

وما أن كفت البلالايكا حتى صاحب ناتاشا عند الباب .

— اعزف أيضاً ! أيضاً من فضلك !

فاستأنف ميتكا عرفه ، وأخذ يدق على البلالايكا نغمة « سيدتى » مع تطاريز وتنويعات . وجلس «العم» يصغى ، ويبتسم ابتسامة هينة ، ورأسه مائل إلى جانب . وتكررت النغمة مائة مرة . وأعيد ضبط البلالايكا مرات عديدة ، وأعيد ضرب النغمات بعينها ، لكن المستمعين ما نالهم منها ضجر ولا سأم ، وكانت رغبتهم أن يسمعوها من جديد ، ومن جديد . دخلت أنيسيا فيدروفنا ، وأسندت جسمها الضخم إلى قائم الباب .

وقالت لناتاشا بابتسامة تشبه ابتسامة « العم » كل الشبه :

- تحبين السماع ؟

ثم أضافت :

— إنه من عازفينا المجيدين .

قال العم فجأة ، بحركة ملؤها الحيوية :

— إنه لا يعزف هذا الجزء على وجهه ! فعليه أن ينفجر منطلقاً - بالضبط ، هيا بنا ! - عليه أن ينفجر منطلقاً !

فسألته ناتاشا :

— هل تعزف إذن ؟

فلم يجب « العم » ، بل ابتسم ، وقال :

— أنيسيا ، اذهبى لترى ما إذا كانت أوتار قيثارتى سليمة . لم ألمسها منذ وقت طويل . بالضبط - هيا بنا ! فقد تخليت عن العزف .

فمضت أنيسيا فيدروفنا عن طواعيه ، بخطاها الخفيفة ، لتلبى الطلب ، وجاءت بالقيثار .

لم يتجه « العم » بالنظر إلى أحد ، ونفخ التراب عن القيثار ، ودق على جوف الآلة بأصابعه الناتئة العظم ، وأصلح من أوتارها ، واتخذ لنفسه جلسة مكينة فى كرسيه المريح . أخذ القيثار من فوق ذراعه بقليل ، وثنى مرفقه الأيسر بحركة مسرحية شيئاً ما ، وغمز لأنيسيا فيدروفنا وهو يدق وتراً ، فتصدر عنه نغمة واحدة نقية رنانة ، ولم يعزف أغنية « سيدتى » بل أخذ يعزف بهدوء ، وانسياب وثقة ، وفى سرعة متشدة غاية التؤدة ، أغنية شهيرة « جاءت البنت فى الشارع » .

وكانت النغمة دقيقة صحيحة الإيقاع ، فطرب لها قلب نيكولاس وناتاشا ، وأثارت فيهما ذلك المرح الهادىء الصاحى الذى كان يشع من كيان أنيسيا فيدروفنا كله . تضرج وجه أنيسيا فيدروفنا ، وغطت وجهها بوشاحها ، وخرجت ضاحكة من الغرفة ، وظل « العم » يعزف عزفاً صحيحاً ، فى عناية وحرص ، وتمكن من العزف ملؤه الحيوية ، وهو ينظر بتعبير ملهم مغاير إلى البقعة التى كانت تقف فيها أنيسيا فيدورفنا . كان يبدو أن ثمة شىء ما يضحك قليلا فى أحد جانبى وجهه ، تحت شاربه الرمادى ، وبخاصة إذا نشطت الأغنية وتوفزت بالسرعة والايقاع المتلاحق ، وكان عند ما يجرى بأصابعه ، هنا وهناك على الأوتار ، يبدو أن ثمة شىء ما ، ينقطع وينكسر .

وما أن فرغ حتى صاحت ناتاشا :

— بديع ! حلو ! استمر يا عمى ، استمر !

ووثبت ، وحضنته وقبلته ، وقالت وهى تلتفت لأخيها ، كأنما تسأله :

— نيكولاس ، نيكولاس ! ما هذا الذى يهز قلبى بهذا الشكل ؟

وكان نيكولاس أيضاً جد مسرور بعزف « العم » ، فكرر « العم » عزف الأغنية ثانية . وعاد وجه أنيسيا فيدروفنا الباسم إلى الظهور عند الباب ، وظهرت خلفها وجوه أخرى .

عزف « العم » مرة أخرى :

يا حلوة ميلى على الدار وهاتى

فى جرتك

ماءك العذب النمير . . .

وهو يجرى بأصابعه على الأوتار فى حذق وبراعة ، ثم أقصر ، وهز كتفيه .

فناحت ناتاشا بنبرة الضراعة والتوسل ، كأنما حياتها تعتمد على ذلك اعتماداً :

— استمر يا عمى العزيز !

نهض «العم» ولاح كأن فيه رجلان : منهما رجل يبتسم بجد ورصانة للرجل الآخر ، بينما الآخر فتى مرح قد اتخذ وقفة ساذجة ، دقيقة ، استعداداً لرقصة شعبية .

وهتف وهو يلوّح لناتاشا بيده التى عزفت لتوّها نغمةً على أحد الأوتار :

— والآن ، يا بنت الأخ !

فألقت ناتاشا بالشال من على كتفها ، وجرت إلى الأمام فى مواجهة « العم » ، وعقدت ذراعيها على صدرها ، وأتت أيضاً بحركة من كتفها ، واتخذت لنفسها وقفة خاصة مضبوطة

أين ، وكيف ، ومتى تأتى لهذه الكونتيسة الصغيرة التى ثقفتها مربية فرنسية مهاجرة أن تتشرب هذه الروح من جوّ روسيا ، وأن تكتسب هذه الآداب الروسية التى كان المرء ليفترض أن « رقصة الشال» الفرنسية قد محتها محواً ، منذ زمن طويل ؟ لكن روحها وحركاتها كانت هى تلك الروح والحركات الروسية التى لا تضاهى ولا يمكن أن تكتسب بمجرد التعليم ، والتى كان « العم » ينتظرها منها . وما أن اتخذت تلك الوقفة ، وابتسمت ابتسامة ظاهرة منتصرة مزهوة ، فى مرح خفى ماكر ، حتى

تلاشى الخوف الذى ساور نيكولاس والآخرين من أنها قد لا تفعل الشيء الصواب ، ومن الآن كانوا بها معجبين .

بل فعلت الشيء الصواب بدقة ، بدقة كاملة تامة ، حتى ترقرقت الدموع فى عينى أنيسيا فيدروفنا التى أعطتها الوشاح اللازم للرقصة ، على أنها كانت تضحك إذ ترقب الكونتيسة برشاقتها . وتهضُّم قدها ، الكونتيسة التى تربت فى الحرير والمخمل ، فما أشد تغايرها عنها ، ومع ذلك فقد كانت هذه الكونتيسة قادرة على أن تفهم كل ما كان من دخيلة أنيسيا ، ومافى دخيلة أبيها وأمها وعمتها ، وكل رجل روسى وامرأة روسية .

هتف العم ضاحكاً ضحكة مرحة وهو ينهى الرقصة :

— حسناً أيها الكونتيسة الصغيرة ، بالضبط — هيا بنا ! أحسنت يا بنت الأخ ! والآن يجب أن نعثر لك على فتى عظيم زوجاً . بالضبط — هيا بنا !

قال نيكولاس باسماً :

— لقد اختاره بالفعل !

فقال « العم » دهشاً :

— أوه ؟

وهو ينظر متسائلا إلى ناتاشا . فأومأت إليه برأسها ، بابتسامة سعيدة . وقالت :

— وهو مدهش أيضاً !

لكنها ما أن قالتها حتى جرى فى نفسها سيلٌ جديد من الأفكار والمشاعر . ودار فى ذهنها :

— ما معنى ابتسامة نيكولاس عندما قال : « اختارته بالفعل » ؟ أسعيد بذلك هو ، أم غير سعيد ؟ كما لو كان يظن بولكونسكى لا يقر ولا يدرك بهجتنا الآن . لكنه يدرك ذلك جميعاً . أين هو الآن ؟

وعاد وجهها رصيناً جاداً فجأة ، وإن لم يدم ذلك إلا لحظة . وقالت لنفسها :

— لا تجسرى على التفكير فى ذلك .

وجلست ثانية بجانب «العم» ، باسمة ، وراحت ترجوه أن يعزف أيضاً .

عزف « العم » أغنية أخرى ، وعزف نغمات ڤالس أيضاً ، ثم تنحنح بعد لحظة صمت ، وخلّص زوره ، وغنى أغنية الصيد الأثيرة إليه :

عند ما أرخى ظلام الليل ستره

وتهاوى الثلج أبيض ناعما . . .

كان « العم » يغنى كما يفعل الفلاحون ، بيقين ساذج كامل أن كل معنى الأغنية إنما هو كلماتها ، وأن النغمة تتأتى من تلقاء نفسها ، وأنه لا وجود من غير الكلمات للنغمة التى تأتى لتؤكد الكلمات وتوقّعها فحسب . فكان من أثر ذلك أن جاءت النغمة غير متدبرة ، كأنها تغريد عصفور ، باهرة الجمال . وطارت ناتاشا طرباً بغناء « العم » وقر فى عزمها أن تتخلى عن تعلم «الهارب» وأن تعزف على القيثار فقط . وطلبت من «العم» قيثاراً ، ووقعت عليها نغمات الأغنية على الفور .

بعد الساعة التاسعة وصلت زحافتان لتعودا بناتاشا وپيتيا ، وثلاثة رجال على الجياد كانوا قد أرسل بهم للبحث عنهم ، وقال أحد الرجال أن الكونت والكونتيسة لا يعرفان أين كانوا ، وكانا فى غاية القلق .

حمل پيتيا الى الخارج كانه لوح من الخشب وأرقد فى أكبر الزحافتين ودلف ناتاشا ونيكولاس إلى الزحافة الأخرى . وأقبل «العم» فدثر ناتاشا ولفها بما يدفئها ، وودعها بحنان جديد . وصاحبهم ، ماشياً ، حتى جسر اتضح أنه يستحيل عبوره ، فداروا حول المخاضة ، وأرسل «العم» بعض الصيادين راكبين أمامهم ، يحملون الفوانيس .

وجاء صوت ينادى من الظلمة :

— إلى اللقاء يا بنت الأخ العزيزة .

وما كان ذلك بالصوت الذى عهدته ناتاشا بل كان هو الصوت الذى غنى « عند ما أرخى ظلام الليل ستره » .

كان فى القرية عند ما مروا بها أنوار حمراء وعبق من الدخان المتصاعد يجلب للقلب السرور .

وقالت ناتاشا عند ما أدركوا الطريق الرئيسى :

— يا له من حبّوب عمى هذا !

فرد نيكولاس :

— نعم ، ألا تشعرين بالبرد ؟

وأجابت ناتاشا :

— لا . إننى فى خير .. خير حال . شد ما أحس براحة !

وقد أوشكت مشاعرها أن تحيرها . وبقيا صامتين فترة طويلة . كان الليل مظلماً مشبعاً بالرطوبة والبلل . ولم يكن بمقدورهما أن يريا الخيل ، بل كانا يسمعانها تخوض وتطس الوحل غير المرئى .

ماذا كان يدور فى تلك النفس المتفتحة التى تشبه نفوس الأطفال ، تلك النفس التى كانت تتلقى وتتمثل ، بكل شغف ، ما تخلفه فيها الحياة من آثار شتى ؟ وكيف كانت تلك الآثار جميعاً تجد لها مكاناً فيها ؟ على أنها كانت جد سعيدة . ولما اقتربوا من الموت دندنت فجأة بنغمة « عند ما أرخى ظلام الليل ستره » وقد كانت طيلة الرحلة تعالج أن تتذكرها ، ثم استعادتها عندئذ فجأة ..

قال نيكولاس :

— تذكرتها ؟

فسألت ناتاشا :

— فيم كنت تفكر الآن تواً ، يا نيكولاس ؟

كانا مولعين بمفاجأة أحدهما الآخر بهذا السؤال .

فقال نيكولاس محاولا أنْ يتذكر :

ـــ أنا ؟

ثم أضاف :

ـــ واللهِ ... طيب اسمعى ، فكرت أولاً أن روجاى هذا ، الكلب الأحمر ، يشبه «العم» ، وأنه لو كان رجلا لأبقى «العم» إلى جانبه دائما ، إن لم يكن بسبب إجادته ركوب الخيل ، فليكن لحسن آدابه . يا له من رجل طيب هذا «العم» ! ألا تعتقدين هذا ؟ وأنت ، فيم كنت تفكرين ؟

ـــ أنا ؟ انتظر لحظة ، انتظر . آه ، أولاً كنت أفكر أننا نتقدم فى طريقنا ونقترب من البيت ، وإن كان الله وحده يدرى أين نذهبُ حقاً فى هـذا الظلام ، وأننا سنصل ونكتشف فجأة أننا لسنا فى أوترادنيو بل فى أرض الأحلام . ثم فكرت .. لا ، لا شىء غير هذا .

قال نيكولاس باسماً ، كما عرفت ناتاشا من نبرة صوته :

ـــ أنا عارف ، أظنك كنت تفكرين فيه .

فقالت ناتاشا :

ـــ لا .

على الرغم من أنها كانت حقاً تفكر فى الأمير أندرو فى نفس الوقت ، وأنه كان ليحب « العم » ويرتاح إليه . ثم قالت :

ـــ ما أنشط أنيسيا وما أحسنها فى المشية والوقوف !

وسمع نيكولاس ضحكتها السعيدة الرنانة المنطلقة على السجية . ثم قالت فجأة :

ـــ تعرف ؟ أنا أعرف تماماً أننى لن أكون أبداً أسعد ولا أهدأ منى الآن .

فهتف نيكولاس :

— هزاء ، كلام فارغ !

ودار بذهنه :

— ماأجمل وماأفتن أختى ناتاشا هذه ! ليس لى من صاحب يشبهها ، ولن أجد مثلها أبداً . لماذا تتزوج؟ كان ليمكن أن نبقى دائما ، راكبين معاً !

وخطر لناتاشا :

— يا لله من حبّوب أخى نيكولاس !

ثم قالت :

— آه ، ما زال النور مضاء فى غرفة الاستقبال !

وهى تشير إلى نوافذ البيت التى كانت تضىء بنور الترحيب فى ظلام الليل المخملى البليل .

الفصل الثامن

استقال الكونت إيليا روستوف من منصب «ملريشال النبالة» إذ كان يعود عليه بالغرم واحتمال عبء نفقات كثيرة ، ومع ذلك فلم تتحسن أحواله المالية ، وكان ناتاشا ونيكولاس يريان أن أبويهما يختليان بأنفسهما ليتحدثا فى لهفة وقلق ، وسمعا عن اقتراحات لبيع دار روستوف العريقة الجميلة ، وضيعتهم بالقرب من موسكو . ولم تعد ثمة ضرورة تقتضى الآن إقامة الحفلات والاستقبالات على النمط الذى كانت تقتضيه الحال عند ما كان الكونت «ماريشالا للنبالة» وكانت الحياة فى أوترادنيو أهدأ منها فى السنوات السابقة ، على أن البيت الضخم وتوابعه كان مزدحماً بالناس ، وكان يجلس إلى المائدة كل يوم ما ينوف عن عشرين شخصا وكان أولئك قومهم وناسهم الذين استقروا فى البيت كأنما كانوا أعضاء فى الأسرة ، أو أناسا يبدو أنهم مضطرون اضطراراً إلى الحياة فى بيت الكونت . ومن أولئك مثلا ديملو الموسيقى وزوجته ، وڤوجيل مدرس الرقص وعائلته ، وبيلاوڤا ، وهى سيدة عانس عجوز من أصفياء البيت ، وغيرهم كثير مثل مدرس بيتيا ،

ومربيات البنات فيما سبق ، وأناس آخرون كانوا يؤثرون ببساطة أن يعيشوا فى بيت الكونت عن أن يعيشوا فى دورهم الخاصة . ولم يكن يلم بهم زوار فى كثرة من كانوا يأتونهم قديما ، ولكن عادات الحياة القديمة التي لم يكن الكونت أو الكونتيسة يتصوران الحياة من غيرها بقيت على العهد بها، فما زالت منشآت الصيد، بل قد وسعها نيكولاس ، وما زال فى الاصطبلات نفس الخمسين حصاناً والخمسين سائساً ، وما زالت الهدايا الغالية ، وحفلات العشاء تولم للمقاطعة كلها فى أعياد الأسماء ، وما زال الكونت يلعب الورق ويبسط أوراقه حتى ليسع كل من شاء أن يراها — فينهبه جيرانه ويسلبونه كل يوم مئات الروبلات ، ويرون فى لعب الورق مع الكونت روستوف مصدراً للدخل يعود بالخير الجزيل .

كان الكونت يتحرك ويعيش فى هذه الأحوال والأعمال كأنه فى شبكة هائلة ، معالجاً ألا يخامره اليقين فى وقوعه فريسة لحبالها ، وإن كان يتردى فى هذه الشباك عند كل خطوة يخطوها ، ويحس نفسه أضعف من أن يحطم الحلقات المحدقة به ، أو أن يأخذ فى العمل بصبر وحرص وأناة ليخلص نفسه . كانت الكونتيسة تحس فى قلبها المحب بأن الدمار يحيق بأبنائها وأنه ما من جريرة للكونت فى ذلك ، فلم يكن يسعه إلا أن يكون على ماهو، وأنه كان يكابد الآلام ، ولو حاول أن يخفى ذلك ، من إحساسه بالدمار يوشك أن ينزل به وبأبنائه ، وكانت تعالج أن تعثر على وسيلة لإصلاح هذه الحال . فلم يكن بمقدورها أن ترى بعينها النسوية إلا حلاً واحداً هو أن يتزوج نيكولاس بوارثة غنية ، كانت ترى فى ذلك أملها الأخير ، فاذا رفض نيكولاس الزواج الذى تعرضه عليه فسيكون عليها أن تتخلى عن كل أمل فى أن تؤول الأمور إلى استقامة . وكان هذا الزواج المقترح زواجه بجولى كاراجينا ، وهى فتاة من أبوين فاضلين ، وقد كان لآل روستوف بها معرفة منذ الطفولة ، وقد أضحت الآن وارثة غنية بعد موت آخر أشقائها .

وقد كتبت الكونتيسة مباشرة إلى أم چولى فى موسكو تقترح عليها الزواج بين ولديهما ، وتلقت منها جواباً بالرضاء . أجابت كاراچينا أنها توافق من جانبها ، وأن كل شيء يعتمد الآن على رضا بنتها . ودعت نيكولاس أن يأتى إلى موسكو .

وأخبرت الكونتيسه ابنها عدة مرات ،والدموع تجول فى مآقيها ، أن رغبتها الوحيدة هى أن ترى ابنها قد تزوج ، بعد أن سويت أمور بنتيها كلتيهما . وقالت أن ذلك لو تم فسوف ترقد فى قبرها بسلام . ثم قالت له أنها تعرف فتاة عظيمة ، وحاولت أن تتبين رأيه فى الزواج .

وكانت فى أحيان أخرى تثنى على چولى أمامه ، وتنصحه بالذهاب إلى موسكو فى إجازته حتى ينال قسطا من المتعة والتسلية . وحدس نيكولاس بالهدف من كلام والدته ، وفى أثناء إحدى هـذه المحادثات أغراها بأن تتحدث إليه بصراحة تامة ، فقالت له أن أملها الوحيد لإصلاح أحوالهم الآن فى زواجه بچولى كاراچينا :

فسأل أمه دون أن يدرك مدى قسوة سؤاله ، ولا رغبة عنده إلا فى أن يظهر نبالة مشاعره :

ـــ ولـكن ياماما ، افرضى أنى أحببت فتاة لا مال عندها ، أتظنين أنى أضحى بمشاعرى وشرفى فى سبيل المال ؟

فقالت ، وقد أحيط بها فلم تعرف كيف تبرر موقفها :

ـــ لا ، ولـكنك لم تفهمنى ، لم تفهمنى يا كولينكا .

وأضافت وهى تحس أنها لاتقول الحق ، وقد اختلط عليها الأمر :

ـــ إنما أرغب فى سعادتك :

ثم أخذت تبكى .

فقال نيكولاس :

ـــ ماما ، لاتبكى . قولى لى فقط أنك ترغبين فى ذلك ، وأنت تعرفين

أنني أهب حياتي وكل شيء في سبيل راحتك ، وأضحي بأي شيء في سبيلك ، حتى مشاعري نفسها .

لكن الكونتيسه لم تكن تريد أن تكون المسألة على هذا الوضع ، لم تكن تريد تضحية من ابنها ، بل كانت تريد أن تضحي في سبيله .

فأجابت وهي ترقأ دموعها :

— لا أنت لم تفهمني ، دعنا من هذا الحديث .

قال نيكولاس لنفسه :

— لعلني بالفعل أحب فتاة فقيرة ، أعليَّ أن أضحي بمشاعري وشرفي في سبيل المال ! إنني لأعجب كيف كان بمقدور ماما أن تحدثني بهذا الشكل ، لا ينبغي أن أحب سونيا ، لأنها بنت فقيرة ، ولا ينبغي لي أن أستجيب لحبها الوفي العميق ؟ ومع ذلك فانني لأكون معها أسعد مني مع أمثال چولي ونحوها من فتيات كالدمى . وما دمت أحب سونيا فان ذلك الشعور عندي أقوى وأسمى من كل ما عداه .

لم يذهب نيكولاس إلى موسكو ، ولم تجدد الكونتيسه الحديث معه عن الزواج ، وكانت ترى ، آسفة وأحيانا محنقة مغيظة ، عوارض الحب ينمو ويزداد بين ابنها وسونيا التي لا مهر لها ولا مال . وما كانت لتملك إلا أن تتذمر وتتسخط على ذلك ، بالرغم من لومها لنفسها ، وأن تلاحق سونيا بالتقريع وتنغص عليها دون ما سبب ، وتخاطبها بجفاء وصلابة بقولها « ياعزيزتي » وبصيغة المخاطب الجمع التي تنم عن الكلفة بدلا من صيغة المخاطب الفرد الجميلة المقربة .

وكانت الكونتيسة في طيبة قلبها ، يزداد بها الضيق من سونيا لأن بنت أخي زوجها هذه الفقيرة النجلاء العينين كانت من الوداعة والطيبة والامتنان الوفي العميق لأولياء نعمتها ، وكانت تحب نيكولاس بولاء وثبات وإيثار ، بلغ منه جميعا أن لم يكن ثمة سبب على الاطلاق للومها .

كان نيكولاس يقضى آخر إجازته فى البلد . وقد وصل من الأمير أندرو خطاب رابع، من روما ، يكتب فيه أنه كان ليكون فى طريقه إلى روسيا منذ زمن طويل لو لم ينفتح جرحه على غير انتظار فى الجو الدافىء ، مما اضطره إلى تأجيل عودته حتى بداية السنة الجديدة . وكانت ناتاشا ما تزال تحب خطيبها بنفس القوة ، وتجد فى حبها نفس العزاء والسلوى ، وما زالت على نفس الأهبة والاستعداد لأن تلقى بنفسها إلى كل مسرات الحياة ، كما كان شأنها فى الماضى. ولكنها فى نهاية الشهر الرابع من فراقهما أخذت تعتورها نوبات من الكآبة لم تستطع أن تتغلب عليها . كانت تحس بالأسف لحالها ولنفسها ، لأنها كانت شيئا مضيما طيلة هذا الوقت ، فى غير ما طائل لأحد على الاطلاق، بينما كانت تحس فى نفسها بكل هذه القدرة على أن تحب وأن تكون محبوبة .

لم تكن الأحوال مما يدعو للبهجة فى بيت آل روستوف .

الفصل التاسع

جاء عيد الميلاد ، ولم تجر احتفالات خاصة فيما عدا القداس ، والتهنئات الرصينة المرهقة من الجيران والخدم ، والملابس الجديدة التى لبسها الجميع ، على أن الجو الهادىء البارد الذى بلغ ٢٠ درجة ريامور(*) وضوء الشمس الساطع نهاراً ، وضوء النجوم فى الليالى الشاتية ، كانت كلها تدعو إلى احتفال خاص .

وفى اليوم الثالث من أسبوع عيد الميلاد ، بعد الغداء ، تفرق كل سكان البيت إلى مختلف الحجرات . كان ذلك أكثر أوقات النهار سآمة ورتابة . كان نيكولاس بعد زيارته لبعض الجيران فى الصباح نائماً على أريكة غرفة الجلوس . وكان الكونت الشيخ يرتاح فى غرفة مكتبه . وجلست سونيا

(*) ١٣ درجة فهرنهيت تحت الصفر .

فى غرفة الاستقبال ، إلى المائدة المدورة ، تنسخ رسماً للتطريز . وكانت الكونتيسة تلعب لعبة «الصبر» بالورق . وجلس ناستاسيا إيڤانوڤنا المهرج إلى النافذة ، كئيب الوجه ، مع سيدتين عجوزين . دخلت ناتاشا الغرفة ، وأقبلت على سونيا ، ورمقت ما كانت تفعل ، ثم ذهبت إلى أمها ، ووقفت دون أن تتكلم .

سألتها أمها :

— لماذا تهيمين كأنك منبوذة ؟ ماذا تريدين ؟

قالت ناتاشا ، وعيناها متألقتان ، ولا أثر لابتسامة فى وجهها :

— أريده . . أريده هو . . الآن ، هذه اللحظة ! أريده !

رفعت الكونتيسة رأسها ونظرت بانتباه إلى بنتها .

— لا تنظرى إلى يا ماما ! لا تنظرى . سأبكى على الفور .

قالت الكونتيسة :

— اجلسى معى قليلا .

— ماما ، أنا أريده . لماذا أظل ضائعة بهذا الشكل يا ماما

وانكسر صوتها ، وانهلّت الدموع من عينيها ، فاستدارت مسرعة تخفيها ، وغادرت الغرفة .

ومرت إلى غرفة الجلوس ، ووقفت هناك تفكر لحظة ، ثم ذهبت إلى غرفة الخادمات . وهناك كانت خادم عجوز تقرّع بنتاً صغيرة وقفت أمامها تنهج ، بعد أن جرت للتو آتية من جناح الأقنان ، فى البرد .

قالت ناتاشا :

— دعيها وشأنها يا كوندارتيڤنا . إذهبى يا ماڤروشا ، إذهبى .

فلما حررت ناتاشا ماڤروشا ، عبرت قاعة الرقص وذهبت إلى الردهة . وكان هناك خادم شيخ وخادمان شابان يلعبون الورق . فكفوا عن اللعب ، ونهضوا عند دخولها .

فكرت ناتاشا :

— ماذا أفعل بهم ؟

— أوه نيكيتا ، اذهب من فضلك إلى ... أين أرسل به ؟.. اذهب إلى الفناء ، وهات لى دجاجة ، من فضلك ، ديكاً . وأنت يا ميشا ، هات بعض القرطم(*).

قال ميشا مبتهجاً راضياً :

— قليل من القرطم فقط ؟

حثه الشيخ :

— اذهب ، اذهب بسرعة .

— وأنت يا تيودور هات لى قطعة من الطباشير .

وفى طريقها عبر غرفة حفظ المؤن قالت للساقى أن يعد لها الساموڤار ، على أن وقت الشاى لم يكن قد حان على الاطلاق .

كان فوكا ، الساقى ، أكثر الناس فى البيت سوء طبع وحدة خُلق . وكانت ناتاشا تحب أن تجرب سلطانها عليه . فلم يول طلبها كبير ثقة ، وسألها ما إذا كان الساموڤار مطلوباً بالفعل .

قال فوكا ، متظاهراً أنه يعبس فى وجه ناتاشا .

— يا رب ..! يا لهذه السيدة الصغيرة !

لم يكن فى البيت كله من يرسل بالناس رائحين غادين ، ويكلفهم بالعمل بمقدار ما تفعل ناتاشا . لم يكن بوسعها أن ترى الناس دون أن توليهم اهتماماً ، بل كان لا مندوحة من أن ترسلهم فى مهمة ما . كان يبدو أنها تجرب ما إذا كان أيهم سوف يثور عليها أو يعبس ويربد أمامها ، ولكن الاقنان لم يكونوا يلبون طلبات شخص ما بمقدار سرورهم ورضاهم بطاعة أوامرها .

(*) يستطلعون الحظ فى روسيا ، بتغذية إحدى الدواجن حبوباً منسقة على الأرض فى أيام عيد الميلاد .

راحت تفكر وهى تمر ببطء فى الممر :

ـــ ماذا أقول ، أين أذهب ؟

سألت المهرج الذى كان مقبلا صوبها يرتدى جاكتة امرأة :

ـــ ناستاسيا إيفانوفنا ، كيف سيكون أولادى ؟

فقال المهرج :

ـــ براغيث بالطبع ، وصراصير ، وجراء .

ـــ آه يا ربى ، آه يا ربى ، كل شىء دائما على حاله ! أين أذهب ؟ ماذا أفعل بنفسى ؟

وجرت مسرعة تدق الأرض بكعبيها ، وهى ترقى السلالم لترى ڤوجيل وزوجته اللذين كانا يقطنان الطابق العلوى .

كان يجلس مع ڤوجيل وزوجته مربيّتان ، إلى مائدة وضعت عليها أطباق من العنب ، والبندق ، واللوز . وكانت المربيتان تتناقشان فيما إذا كانت الحياة فى موسكو أرخص أم فى أوديسا . فجلست ناتاشا ، وأصغت إلى حديثهما بمظهر رصين متفكر ، ثم نهضت ثانية .

قالت :

ـــ جزيرة مدغشقر .

وكررت الكلمة وهى تؤكد كل مقطع فيها بوضوح ، دون أن تجيب على مدام شوس التى سألتها ماذا قالت :

ـــ مد . . غش . . قر .

وخرجت من الغرفة .

كان پيتيا أخوها فى الطابق العلوى أيضاً ، وكان يهيىء ، مع تابعه ، صواريخ سوف يطلقها ليلتها .

ونادته :

ـــ پيتيا ! پيتيا ! إحملنى إلى تحت .

فجرى يبتيا ، وقدم لها ظهره . ووثبت عليه ، ووضعت ذراعيها حول عنقه ، وأخذ يحجل ويتواثب بها .

قالت :

ــ لا ، لا تفعل ... جزيرة مدغشقر !

ووثبت من على ظهره ، وجرت نازلة إلى تحت .

فلما فرغت من الزور بمملكتها ، والحال هذه ، واختبرت سلطانها وأيقنت أن الناس جميعاً يدينون لها بالسلطان ، وإن كان ذلك كله مع ذلك شيئاً مضجراً رتيباً ، مضت إلى غرفة الرقص ، والتقطت قيثارها ، وجلست فى ركن معتم خلف دولاب كتب ، وأخذت تجرى أصابعها على أوتار نغمة «الباس» ، وتضرب قطعة تذكرتها من أوبرا كانت قد سمعتها فى بطرسبرج مع الأمير أندرو . ولم يكن ما صدر عن القيثار ليحمل معنى لغيرها ، ولكن هذه الأنغام أيقظت فى ذاكرتها طائفة كبيرة من الذكريات . جلست خلف دولاب الكتب ، شاخصة العينين تحدق بشعاع من الضوء يخرج من باب غرفة المؤونة ، وراحت تصغى إلى نفسها ، وتتملى الفكر . كان مزاجها يجنح إلى التأمل فى الماضى .

مرت سونيا متجهة إلى غرفة المؤونة وفى يدها قدح . فرمقتها ناتاشا عندما سمعت صرير باب الغرفة ، وبدا لها أنها تتذكر شعاع الضوء النافذ من خصاص الباب ، وسونيا تمر وفى يدها قدح ، كأن ذلك قد حدث بالفعل ذات مرة ، فى الماضى .

وصاحت وهى تضرب وتراً أجش النبرة :

ــ سونيا ، ما هذا ؟

أجفلت سونيا ، وقالت :

ــ أوه .. أنت !

واقترب منها ، وأصغت وغامرت بالقول ، على استحياء ، خشية أن

تكون مخطئة :

ـــ لا أدرى . عاصفة ؟

ففكرت ناتاشا :

ـــ هاك . هذا بالضبط كيف أجفلت ، وكيف جاءت باسمة على حياء ، عندما حدث ذلك كله من قبل . وبنفس الطريقة فكرت عندئذ أنها يعوزها شىء ما .

قالت ناتاشا :

ـــ لا ، إنه الكورس فى أوبرا « السقاء »(*) اسمعى !

وغنت ناتاشا نغمة الكورس حتى يتسنى لسونيا أن تتذكرها . ثم سألت :

ـــ أين كنت ذاهبة ؟

ـــ لأغير الماء فى هذا القدح ، أوشكت الآن أن أفرغ من الرسم .

قالت ناتاشا .

ـــ أنت دائماً تجدين ماتفعلين ، ولكنى لاأستطيع أين نيكولاس .

ـــ نائم ، فيما أظن .

قالت ناتاشا :

ـــ سونيا ، اذهبى فايقظيه . قولى له أنى أريده أن يأتى ويغنى

وجلست هنيهة ، تتساءل ما معنى حدوث ذلك كله من قبل . ولم تحل هذه المشكلة ، ولاأسفت لأنها لم تحلها ، ورجعت فى خيالها إلى الوقت الذى كانت فيه معه هو ، وكان ينظر إليها بعينى المحب .

ـــ آه ، لو أنه جاء بأسرع من هذا ، كم أخشى ألا يحدث ذلك أبداً ! وأسوأ ما فى الأمر أنى أشيخ وأتقدم فى السن ـ هذه هى المسألة ! فلن

(*) رائعة المؤلف الموسيقى شيروبينى «السقاء» أو «يومان» .

يكون عندى ما هو عندى الآن . ولكن عساه يأتى اليوم ، يأتى حالا .. عساه قد جاء ، وهو يجلس الآن فى غرفة الاستقبال . عساه جاء أمس ، وأنا نسيت .

نهضت ، ووضعت القيثار ، وذهبت إلى غرفة الاستقبال .

كان كل من فى البيت ، المدرسون والمربيات والضيوف ، جالسين إلى مائدة الشاى . وكان الخدم يقفون حول المائدة . . لكن الأمير أندرو لم يكن هناك ، وكانت الحياة تمضى كشأنها من قبل .

قال الكونت الشيخ عندما رأى ناتاشا تدخل :

ـــ آه ها هى ذى ..! تعالى واجلسى بجانبى .

لكن ناتاشا بقيت إلى جوار أمها ، وراحت تجيل النظر حواليها كأنها تبحث عن شيء .

وتمتمت :

ـــ ماما ..! هاتيه لى . هاتيه يا ماما ، بسرعة ، بسرعة !

وصعب عليها مرة أخرى أن تكبح شهقاتها بالبكاء .

ثم جلست إلى المائدة ، وأصغت إلى الحديث بين الشيوخ ونيكولاس وقد جاء أيضاً إلى المائدة .

ودار بخاطرها :

ـــ يا ربى ، يا ربى ! نفس الوجوه ، نفس الحديث ، بابا يمسك بفنجانه وينفخ فيه بنفس الطريقة !

وأحست ، باستفظاع ، شعوراً بالنفور يثور فى نفسها من كل سكان البيت ، لأنهم دائماً على حالهم لا يتغيرون .

وبعد الشاى ذهب نيكولاس ، وسونيا ، وناتاشا إلى غرفه الجلوس ، ومضوا إلى ركنهم الحبيب حيث كانت تدور بينهم دائماً أكثر الأحاديث قربى إلى نفوسهم .

الفصل العاشر

عند ما اتخذوا أما كنهم فى غرفة الجلوس ، سألت ناتاشا أخاها :

— أيحدث لك قط أنك يخامرك شعور بأن شيئاً لن يحدث لك أبداً بعد ، لا شيء ، وأن كل ماهو طيب وحسن قد مضى ؟ وأن تشعر لابالملل تماماً ، بل بالحزن ؟

فأجاب :

— بالطبع ! كنت أحس بذلك عند ما يكون كل شيء على خير حال ، وكل الناس على خير حال من البهجة والسرور . وكانت تأتى إلى ذهنى فكرة انني سئمت كل شيء ، وأننا جميعاً إلى الموت مسوقون . حدث فى مرة أننى لم أذهب إلى حفلة كانت فيها موسيقى . وشعرت فجأة بكآبة شديدة .

فقاطعته ناتاشا :

— نعم ، أعرف ، أعرف ، أعرف هذا ! عند ما كنت صغيرة جداً كان ذلك يحدث لى كثيراً . هل تتذكر عند ما عوقبت مرة بسبب شيء من البرقوق ؟ كنتم جميعاً ترقصون ، وجلست أنا أبكى فى غرفة الدرس ؟ لن أنساها أبداً : كنت أحس بالحزن والأسف للجميع ، لنفسى ، وللجميع ، وكنت مع ذلك بريئة من كل ذنب ، وهو الشيء الرئيسى . هل تتذكر ؟

فأجاب نيكولاس :

— نعم أذكر . أذكر أنى جئت إليك فيما بعد ، وأردت أن أسليك ، خجلا . كنا مضحكين جداً . كان عندى وقتئذ عروسة مضحكة ، وأردت أن أعطيك إياها . أتذكرين ؟

فسألته ناتاشا بابتسامة تأمل وتفكير :

— أتذكر أيضاً كيف أننا فى مرة ، من وقت طويل ، طويل ، عند ما كنا صغاراً جداً ، ونادانا عمى إلى غرفة مكتبه — كان ذلك فى

البيت القديم – وكانت الغرفة مظلمة ، فذهبنا هناك ، وفجأة كان يقف هناك ...

وتابعها نيكولاس بابتسامة سرور :

– زنجى أسود ! أذكر بالطبع . وحتى الآن لا أعرف ما إذا كان هناك زنجى أسود بالفعل ، أم أننا حلمنا ، أو قيل لنا ذلك .

– كان أشيب الشعر ، أتذكر ؟ وكانت له أسنان بيضاء ، وكان يقف ، وينظر إلينا . . .

سأل نيكولاس :

– سونيا ، أتذكرين أنت ؟

فأجابت سونيا فى خجل :

– نعم . نعم ، أنا أذكر شيئاً ما أيضاً .

قالت ناتاشا :

– أتعرف ؟ سألت ماما وبابا عن الزنجى الأسود . يقولون أنه لم يكن هناك زنجى أسود بالمرة . ولكن هأنت تتذكر !

– بالطبع أتذكر . أنا أتذكر أسنانه كما لو كنت رأيتها الآن .

– ما أغرب ذلك ! كأنه حلم ! أحب هذا أنا ..!

– وهل تذكرين عندما دحرجنا البيض المسلوق فى غرفة الرقص ، وفجأة أخذت امرأتان عجوزان ترقصان وتدوران حول السجادة ؟ أكان أكان ذلك حقيقياً أو غير حقيقى ؟ هل تذكرين كيف كان شيئاً ممتعاً ؟

– نعم . وهل تذكر عندما أطلق بابا بندقيته فى الشرفة ، وهو يرتدى معطفاً أزرق ؟

وهكذا راحا يستعيدان ذكرياتهما ، مبتسمين فى سرور : فلم تكن تلك ذكريات الشيخوخة الحزينة ، بل ذكريات الصبا الشاعرية ، تلك الانطباعات من أبعد أبعاد الماضى فى حياة المرء ، حيث تندمج الأحلام

والحقائق . وكانا يضحكان فى متعة هادئة .

ولم تكن سونيا تلاحقهما تماماً ، فذلك دأبها دائما ، على أنها كانت تشاركهما نفس الذكريات .

كان الكثير مما يتذكران قد أخطأته ذاكرتها ، أما ذكرياتها فلم تكن تثير الحس الشاعرى الذى يخامرها . إنما كانت تستمع بسرورها فحسب ، وتحاول أن تجد لها مكاناً معهما .

ولم تأخذ بنصيبها حقاً إلا عندما تذكرا مجىء سونيا لأول مرة . فأخبرتهما كيف كانت تخاف من نيكولاس لأنه كان يلبس جاكته مضفورة الشرائط ، وكيف أخبرتها مربيتها أنها أيضاً سوف تخاط حولها الشرائط لتوثيقها .

قالت ناتاشا :

— وأذكر أنهم قالوا لى أنك ولدت تحت قرنبيطة . وأذكر أننى لم أجسر على أن أنكر ذلك عندئذ ، ولكنى كنت أعرف أنه لم يكن حقاً ، وكنت أشعر بحرج شديد .

وفيم كانوا يتحدثون دفعت إحدى الخادمات الباب برأسها من الباب الآخر فى غرفة الجلوس . وقالت هامسة :

— لقد أحضروا الديك يا آنسة .

فأجابت ناتاشا :

— لم تعد إليه حاجة يا پوليا . قولى لهم أن يأخذوه

وفى وسط حديثهم جاء ديملر وذهب إلى الهارب الذى كان يقوم فى ركن هناك فى غرفة الجلوس ونزع القماش الذى يغطيه ، فصدر عن الهارب صرير .

وجاء صوت الكونتيسة العجوز من غرفة الاستقبال .

— مسيو ديملر ، اعزف لى من فضلك النوكتيرن التى أحبها من فيلد[*].

فعزف ديملر نغمة ، والتفتت ناتاشا إلى نيكولاس وسونيا . وقال لهم :

— ما أشد هدوءكم أنتم الشبان !

قالت ناتاشا ، وهى تدير البصر حواليها لحظة :

— نعم ، نحن نتفلسف .

ثم واصلت الحديث . كانوا الآن يبحثون فى الأحلام .

شرع ديملر يعزف ، ومضت ناتاشا على أطراف قدميها إلى المائدة ، من غير حس ، وأخذت شمعة ، وحملتها إلى الخارج ، وعادت فاتخذت جلستها بهدوء فى مكانها السابق . كانت الغرفة مظلمة ، وبخاصة حيث كانوا يجلسون على الأريكة ، ولكن ضوء البدر الفضى كان يأتى من النوافذ المفتوحة ويسقط على الأرض . كان ديملر قد فرغ من عزف قطعة ، لكنه ظل يجرى أصابعه ، فى نغمات خفيضة ، على الأوتار ، ومن الواضح أنه متردد فيم إذا كان عليه أن يكف أو أن يعزف قطعة أخرى .

قالت ناتاشا هامسة ، وهى تقترب من نيكولاس وسونيا :

— أتعرفان ؟ عند ما يظل المرء يتذكر ويتذكر ، فإنه يتذكر فى الآخر ما حدث قبل أن يأتى المرء إلى العالم ...

قالت سونيا :

— هذا هو التقمص .

فقد كانت دائماً تحسن الحفظ ، وتتذكر كل ما تتعلمه . وأضافت :

— كان المصريون يؤمنون بأن أرواحنا عاشت فى الحيوانات ،

(*) جون فيلد ، مؤلف موسيقى ، ولد فى دبلن ، واستقر فى روسيا سنة ١٨٠٤ وعرف باسم « فيلد الروسى » .

وسوف تحلّ ثانية فى الحيوانات .

قالت ناتاشا وهى ما زالت تهمس ، على أن الموسيقى كانت قد كفّت .

ــ لا ، لا أومن أننا كنا فى الحيوانات أبداً . ولكنى متأكدة أننا كنا ملائكة ، فى مكان ما ، هناك ، وأننا كنا هنا من قبل ، ولذلك نتذكر . . .

قال ديملر ، وكان قد أقبل إليهم فى هدوء :

ــ أتسمحون لى بالانضمام إليكم ؟

وجلس بجانبهم .

قال نيكولاس :

ــ لو أننا كنا ملائكة ، فلماذا نزلنا إلى درجة أدنى ؟ لا ، ذلك لا يمكن أن يكون !

قالت ناتاشا فى يقين :

ــ لم ننزل إلى درجة أدنى . من قال أننا نزلنا إلى أدنى ؟ كيف أعرف ماذا كنت من قبل ؟ إن الروح خالدة ــ طيب إذن ، فإذا كنت سأعيش دائماً ، فلابد أنى كنت أعيش من قبل ، كنت أعيش طول الأزل .

فقال ديملر ، وكان قد انضم إلى هؤلاء الصغار وعلى شفتيه ابتسامة تنازل ، لكنه الآن كان يتكلم بمثل هدوئهم ورصانتهم :

ــ نعم ، ولكن يصعب علينا أن نتصوّر الأزل .

قالت ناتاشا :

ــ لماذا يصعب أن نتصوّر الأزل؟ نحن الآن ــ اليوم ، وسوف يكون هناك ــ غداً ، ودائماً . وقد كان هناك أمس ، وأول من أمس . . .

سمعوا الكونتيسة تقول :

ــ ناتاشا ! جاء دورك الآن ، غنى لى شيئاً . لماذا تجلسون هناك كالمتآمرين ؟

فأجابت ناتاشا :

— ماما ، لا أريد أن أغنى بالمرة .

ولكنها مع ذلك نهضت .

لم يكن فيهم من يريد أن يقطع حبل الحديث ويترك ذلك الركن فى غرفه الجلوس ، ولا ديعلر الناضج الذى كان فى منتصف العمر نفسه . على أن ناتاشا نهضت ، وجلس نيكولاس إلى البيانو . وقفت ناتاشا ، كالمعتاد ، فى وسط القاعة ، واختارت أفضل مكان صلاحيةً لتردد أصداء الصوت ، وأخذت تغنى أغنية أمها الأثيرة .

قالت أنها لم تكن تريد أن تغنى ، وإن كان قد مضى وقت طويل منذ أن غنّت آخر مرة .

وسمعها الكونت من مكتبه حيث كان يتحدث إلى ميتينكا ، فكان كالتلميذ الذى يتعجل الخروج ليجرى ويلعب ، وأخذ يلهوج حديثه ويتعثر فى أوامره لوكيله ، ثم كفّ أخيراً ، بينما وقف ميتينكا أمامه ، يصغى أيضاً ويبتسم ، ولم يرفع نيكولاس بصره عن أخته ، وكان يأخذ نَفَسه مع إيقاع غنائها . وكانت سونيا ، إذ تصغى ، تفكرُ فى البون الشاسع الذى يفرقها عن صديقتها ، ومدى استحالة أن تقترب أدنى اقتراب من بنت عمها فى فتنتها وسحرها ، وجلست الكونتيسة العجوز وعلى وجهها ابتسامة جذلة نشوانة وإن كانت حزينة آسية ، وفى عينيها دموع ، تهز رأسها بين الحين والحين . كانت تفكر فى ناتاشا ، وفى صباها هى ، وكيف أن هناك شيئاً ما ، غير طبيعى ومخيفاً ، فى هذا الزواج الموشك بين ناتاشا والأمير أندرو .

وكان ديملر ، وقد جلس بجانب الكونتيسة ، يصغى بعينين مغمضتين . ثم قال فى النهاية :

— آه يا كونتيسة . هذه موهبة تليق بأوربا نفسها . إنها ليست بحاجة

أن نتعلم شيئاً ـ يا للرقة ، والنعومة ، والقوة .

قالت الكونتيسة ، غير مدركة إلى من كانت تتجه بالحديث :

ـ آه ، كم أخاف عليها . كم أنا خائفة !

كانت غريزة الأمومة فيها تنبئها بأن في ناتاشا شيئاً ما ، أكثر مما ينبغي بكثير ، وأنها لن تكون سعيدة من أثر ذلك . وقبل أن تفرغ ناتاشا من الغناء اندفع بيتيا ضاحكاً بكل بهجة سنيه الأربعة عشرة ، وقال أن بعض الممثلين قد وصلوا .

فكفّت ناتاشا فجأة .

وصرخت بأخيها :

ـ يا أيها الأبله !

وجرت إلى كرسي ، وألقت بنفسها إليه تشهق ببكاء بلغ من عنفه أن لم تستطع كفّه وقتاً طويلاً .

قالت وهي تعالج أن تبتسم :

ـ لا شيء يا ماما ، لا شيء ، صحيح . بيتيا أخافني ، هذا كل ما في الأمر .

لكن دموعها كانت ما تزال منهلة تسح من عينيها . وما زالت تغص بالنشيج .

كان الممثلون ـ وهم من بعض أقنان المنزل ـ قد تنكروا في أزياء الأتراك ، واصحاب النزل ، والسيدات ، واتخذ بعضهم شكل الدببة ـ وكانوا مضحكين ومخيفين ـ وأتوا معهم بنفحات البرد من الخارج ، وبإحساس من المرح والبهجة ، وتزاحموا في الردهة ، على حياء في أول الأمر ، ثم راحوا يستخفون الواحد منهم وراء الآخر ، ويتدافعون إلى غرفة الرقص ، حيث أخذوا يغنون ويرقصون ويلعبون لعب عيد الميلاد ،

على استحياء وخجل فى أول الأمر ثم فى طرب ومرح يطّرد ويتزايد . فلما عرفت الكونتيسة شخصية كل منهم ، وضحكت لأزيائهم ، ذهبت إلى غرفة الاستقبال . وجلس الكونت فى غرفة الرقص ، باسماً متهلل الأسارير وأخذ يصفق للممثلين . أما الشبان فكانوا قد اختفوا .

وبعد نصف ساعة ظهرت بين الممثلين فى غرفة الرقص سيدة عجوز ترتدى قميصاً ، كان ذلك نيكولاس . وكانت هناك فتاة تركية هى پيتيا ، ومهرج هو ديملر ، وجندى من الفرسان هو ناتاشا ، وجندى قوقازى هو سونيا ، وقد سودت شاربها وحاجبيها بفلينة محروقة .

وبعد أن أبدى الآخرون الذين لم يتنكروا دهشتهم المتعالية ، وعجزوا عن أن يتعرفوا على أصحاب هذه الأزياء ، ثم أثنوا عليهم ، قرر الشبان أن أزياءهم من الإتقان بحيث يستحق الأمر عرضها فى مكان آخر .

وكان نيكولاس يود أن يأخذهم جميعاً فى نزهة ، فى عربته ذات الثلاثة خيول ، فقد كانت الطرق فى خير حال ، واقترح أن يأخذوا معهم نحو عشرة من الممثلين الأقنان ، وأن يركبوا جميعاً إلى بيت « العم » .

قالت الكونتيسة :

— لا ، لماذا نقلق راحة هذا العجوز ؟ ثم أنكم هناك لا تجدوا مكاناً تلتفتون فيه إلى جنب . إذا كان لابد من الذهاب ، فلتذهبوا إلى بيت آل ميليوكوف .

كانت ميليوكوفا أرملة تقطن مع عائلتها وأبنائها ومدرسيهم ومربياتهم على بعد ثلاثة أميال من بيت آل روستوف .

فقال الكونت الشيخ ، وقد ثارت حميته :

— مضبوط يا عزيزتى . سألبس على الفور وأذهب معهم . سوف أجعل باشيت تفتح عينيها .

لـكن الكونتيسة ما كانت لترضى بأن يذهب ، فقد كانت ساقه تؤلمه خلال هذه الأيام الماضية كلها . وتقرر ألا يذهب الـكونت ، أما إذا رضيت لويزا إيفانوفنا (مدام شوس) بالذهاب معهم فلا بأس من ذهاب السيدات الصغيرات إلى بيت آل ميليوكوف ، وقد راحت سونيا ، وهى الحيية الخجول عادة ، تتوسل إلى مدام شوس ألا ترفض الذهاب وتلحف عليها فى الرجاء بأشد مما كانوا يفعلون جميعاً .

كان زىّ سونيا أفضل الأزياء جميعاً . وكان شاربها وحاجباها يليقان بها إلى حد خارق . وكان الجميع يقولون لها أنها تبدو على غاية القسامة والوسامة ، وكانت فى مزاج يفيض بالنشاط والمرح ، لم يعهد عنها . كان ثمة صوت داخلى يهيب بها أن مصيرها سوف يتقرر الآن . أو لايتقرر أبداً ، وكانت تبدو فى زيها الرجالى شخصاً مغايراً جد مختلف فوافقت لويزا إيفانوفنا على الذهاب ، وبعد نصف ساعة أقبلت إلى الشرفة أربع زحافات بها أجراس كبار وصغار ، وقد راحت قضبانهـا تصرّ وتصفر فوق الثلج الجمَد .

كانت ناتاشا هى الأولى والمبرزة فى أن تـكسب الجو نغمة الأعيـاد المرحة ، وانتقلت هذه النغمة من شخص إلى آخر ، وراحت تقوى وترتفع حتى وصلت إلى ذروتها عند ما خرجوا جميعاً على الأرض المغطاة بالثلج ، ودلفوا إلى الزحافات ، ذات الخيل الثلاثة ، ينادون أحدهم الآخر ، ويضحكون ويتصايحون .

كانت اثنتان من الزحافات هما الزحافتان المتادتان لأصحاب البيت ، أما الثالثة فهى زحافة الـكونت الشيخ وقد أوثق جواد راكض من اسطبل أورلوف فى عريشها الأوسط ، وكانت الرابعة هى زحافة نيكولاس وفى عريشها الأوسط حصان قصير أشعث أدهم . ووقف نيـكولاس فى وسط الزحافة ، والأعنّة فى يده ، وقد ارتدى ثوب السيدة العجوز

وحزم فوقه معطف ضابط فرسان .

وكان النور غامراً حتى كان بوسعه أن يرى ضوء القمر منعكساً من أقراص اللجم المعدنية ومن أعين الخيل التى كانت تجيل البصر حوالبها منزعجة من هذه الجماعة الصاخبة تحت ظل سقف الشرفة الأمامية .

دلفت ناتاشا وسونيا ومدام شوس وخادمتان إلى زحافة نيكولاس . واستقل ديملر وزوجته وپيتيا زحافة الكونت ، واتخذ سائر الممثلين أماكنهم فى الزحافتين الأخريتين .

صاح نيكولاس بحوذى أبيه ، متحيناً الفرصة ليسابقه :

— انت تبدأ يا زاخار !

فتحركت زحافة الكونت الشيخ وبها ديملر وجماعته ، وهى تصرّ وتئن ، وأجراسها العميقة النبرة تصلصل . وزحم الحصانان الجانبيان جانبي عريش الحصان الأوسط ، وغاصا فى الثلج الذى كان جافاً ومتألقاً كالسكر ، ، ونفضاه بسنابكهما .

وتقدم نيكولاس فى أثر الزحافة الأولى ، وتحركت خلفه الزحافتان الأخريتان فى ضجيج ، وقضبانهما تصر وتئز . وانطلقت الزحافات فى أول الأمر ، تركض خيولها فى خبب منتظم على الطريق الضيقة . وفيم كانوا يمرون بالحديقة كانت ظلال الأشجار الجرداء تسقط عبر الطريق وتخفى ضوء القمر اللألاء الباهر ، ولكنهم ما أن تجاوزوا السور حتى امتد أمامهم السهل المثلوج ، يسبح فى ضوء القمر ، ساكناً ، متألقاً كأنه خبات الماس ، ترقطه ظلالٌ جانحة إلى الزرقة . « بانج .. بانج ..! » تردت الزحافة الأولى فى غور من ثلج الطريق ، ومضت فى طريقها ، وتبعتها الزحافات الأخرى بنفس الطريقة ، وانطلقت الزحافات تبدد الصمت الذى يسود فى الصقيع ، فتدفعه على الطريق واحدة إثر الأخرى .

تردد صوت ناتاشا فى خلال الهواء الهادىء الساكن من الصقيع :

— آثار أرنب ، آثار كثيرة !

وجاء صوت سونيا :

— يا له من نور غامر يا نيكولاس !

فلحظها نيكولاس بعينه إلى جانب ، وانحنى ليدنى عينيه من وجهها . وجهٌ جديد عذب بحاجبيه السوداوين وشاربه كان ينظر إليه من فرائها . وجه شديد القرب منه وشديد البعد مع ذلك - فى ضوء القمر .

ودار بخاطره :

— تلك كانت سونيا !

وراح ينظر إليها عن قرب ، وابتسم .

— ماذا هناك يا نيكولاس ؟

فقال :

— لا شيء .

والتفت ثانية إلى الخيل .

فلما خرجوا إلى الطريق العام المطروق - وقد صقلته قضبان الزحافات وكسرت ثلجه سنابك الخيل الخشنة التى كانت آثارها جلية فى ضوء القمر - راحت الخيل تجذب الأعنّة من تلقاء نفسها ، وزادت من سرعتها . وثنى الحصان الجانبي الأدنى رأسه ، وانطلق يعدو فى هملجة متقاربة الخطى ، ويجذب لجامه . وكان الحصان الأوسط يتوقّص فى عدْوه من جانب إلى جانب ، ويحرك أذنيه كأنه يسأل : هل جاء الوقت الآن كى نبدأ ؟ وإلى الأمام كانت الخيل الدُّهم التى يسوقها زاخار تُرى بوضوح بعيدةً على الثلج الأبيض، وجرسها العميق يصلصل ويبتعد . وكانت تُسمع من الزحافة صيحات وضحك وأصوات المثلين .

صاح نيكولاس وهو يشد الأعنة إلى جانب ، ويشهر سوطه :

— هيا ، يا حبايب !

وما كان المرء ليلاحظ مدى سرعة طيران الزحافة إلا من اشتداد عصف الريح التي هبت لتلقاهم ، وما كان يتأتى من الحصانين الجانبيين من نفضات إذ يشدّان الزحافة ويضطرمان عدواً وينطلقان في إهاج مطرد السرعة . نظر نيكولاس وراءه . كانت الزحافتان الأخريتان تقفوان أثره ، وسط صيحات وأصوات ثاقبة من الصراخ والصياح ، والتلويح بالسياط ، حتى جفزت الخيل الوسطى نفسها على أن تهمج في عدوها بأقصى سرعة . كان الحصان الأوسط يخبّ في سرعة مطردة تحت القوس الخشبي الذي يعلو رأسه ، ولا يخطر له أن يطامن من سرعته بل كان على استعداد لأن يزيد منها إذا تطلب الأمر .

لحق نيكولاس بالزحافة الأولى . كانوا عندئذ ينحدرون على تل من الأرض ، ويخرجون إلى طريق عريضة مطروقة عبر المراعي بالقرب من نهر .

ففكّر :

— أين نحن ؟ في مراعي كوسوى ، أظن . ولكن لا ، هذا شيء جديد لم أره قط من قبل ليست هذه مراعي كوسوى ، ولا تلّ ديمكين . والله وحده يدري ما هذا ! إنه شيء جديد ومسحور .. على أي حال ، وأياً كان ...

وصاح بخيله ، وشرع يمر بجانب الزحافة الأولى .

كبح زاخار خيله ، والتفت بوجهه الذي كان البَرَد قد غطاه منذ الآن حتى حاجبيه .

فأطلق نيكولاس الأعنة لخيله ، ومدّ زاخار ذراعيه ، وطقطق بلسانه ، وترك خيله تعدو في أعنتها ، وصاح :

— والآن خلّ بالك يا سيدي !

طارت الزحافتان بسرعة أكبر وأكبر ، جنباً إلى جنب ، وراحت

سنابك الخيل الجانبية تطير بسرعة أكبر ثم أكبر . ورفع زاخار يده بالأعنة ، وهو ما يزال مبسوط الذراعين ، وصاح :

— لا ، لن نمر يا سيدى !

أطلق نيكولاس خيله جميعاً تهمج فى عدو متدارك ، وتجاوز زاخار. كانت الخيل تطس الثلج الجاف الدقيق على وجوه راكبي الزحافة ـ وسمعوا بجانبهم أجراساً تصلصل دراكاً ، واختطفوا نظرة مختلطة من سيقان تعدو منطلقة ، وظلال الزحافة التى مروا بها . وسمعت من جوانب شتى أصوات قضبان الزحافة وهى تصفر على الثلج ، وأصوات البنات تصرخ

كبح نيسكولاس مرة ثانية خيله ، ونظر حواليه . كان ما يزال يحيط بهم سهل سحرى يغمره ضوء القمر ، وتوشيه النجوم اللامعة .

ودار بذهن نيكولاس :

— زاخار يصيح بى أن أدور إلى اليسار . ولـكن لمَ اليسار ؟ أنحن ذاهبون إلى دار آل ميليكوف ؟ أهذه ميليوكوفا ؟ الله وحده أدرى أين نذهب ، والله وحده أدرى بم يحدث لنا ـ ولـكنه شيء غريب جداً وجميل ، ذلك الذى يحدث ، مهما كان .

والتفت فنظر فى الزحافة .

قال أحد الناس الغرباء الحلوين الذين لا معرفة له بهم ، ذلك الذى له حاجبان رائعان وشارب وسيم ، قال :

— انظروا ، شاربه وأهداب عينيه كلها بيضاء !

وفـكر نيكولاس :

— أظن ذلك كان ما نعرفه باسم ناتاشا . وذلك كان عهدنا به أنه مدام شوس ، وإن كان عساه لا يكون هو حقاً . وهذه القوقازية ذات الشارب لا أعرفها ، لـكنى أحبها .

وسأل :

— ألا تشعرن بالبرد ؟

فلم يجبن ، بل أخذن يضحكن . وصاح ديملر بشيء من الزحافة الخلفية ـ ولعله كان شيئاً مضحكاً مثلاً ـ ولكنهم لم يتبينوا ما قال .

وأجابته أصوات ضاحكه :

— نعم ، نعم !

ودار بذهن نيكولاس :

— ولكن هنا غابة سحرية بها ظلال سوداء متحركة ، وتألق من وهج الماس ، وسلالم من درجات رخامية ، وسقوف من الفضة على بيوت سحرية وصيحات بعض الحيوانات الثاقبة . فإن كانت مع ذلك هى ميليوكوفكا ، فمن الأغرب أننا ركبنا إلى مكان لا يدريه إلا الله ، ووصلنا مع ذلك إلى ميليوكوفكا .

وكانت تلك فى الحق ميليوكوفكا ، وأقبل الخدم والخادمات بوجوه مرحة يجرون من الشرفة الأمامية ، يحملون الشموع .

وجاء سؤال من الشرفة .

— من هؤلاء ؟

وأجابت أصوات أخرى :

— الممثلون من عند الكونت . عرفتهم من خيلهم .

الفصل الحادى عشر

كانت بيلاجيا دانيلوفنا ميليوكوفا امرأة عريضة البنية مليئة بالعزم ، تضع نظارات على عينيها ، وقد جلست فى غرفة الاستقبال فى ثوب فضفاض يحيط بها بناتها اللائى كانت تحاول أن تدخل عليهن السرور وتسليهن . كانت البنات يسقطن الشمع المذوب فى الثلج ، بهدوء ، وينظرن إلى الظلال التى تلقيها أشكال الشمع على الجدار ، عند ما سمعن أصوات الضيوف

وخطاهم فى الردهة .

أقبل جنود فرسان ، وسيدات ، وساحرات ، ومهرجون ، ودببة ، فتنحنحوا ، وخلصوا حلوقهم ، ومسحوا البرد من على وجوههم ، فى الردهة ، ثم دخلوا إلى غرفة الرقص حيث كانت الشموع توقد على عجل . بدأ المهرج ـ ديملر ـ والسيدة ـ نيكولاس ـ يرقصان . وأحاط الأطفال ، وهم يصرخون ، بالممثلين الذين غطوا وجوههم ، وجهّلوا أصواتهم ، وانحنوا لمضيفتهم ، ثم رتبوا أنفسهم فى الحجرة .

وارتفعت أصوات شتى تقول :

ـ يا سلام ! لا يمكن تمييزهم ! وناتاشا ! أنظر كيف تبدو ! تذكرنى صحيح ، بشخص ما . ولكن المرّ ـ ديملر ـ أليس عظيما ؟ لم أعرفه ! وياله من راقص . يا سلام ! هذا قوقازى . ويليق جداً بسونيا العزيزة ! ومن هذا ؟ لقد أبهجتم قلوبنا ! نيكيتا ، فانيا ، ارفعا الموائد ! وكنا جالسين بهدوء ، ها ، ها ، ها ! الفارس ، الفارس ! بالضبط كأنها ولد ! والسيقان . . ! لا يمكنى أن أنظر إليه . . .

اختفت ناتاشا فى الغرف الخلفية مع بنات آل ميليوكوف ، وقد كانت حبيبة إليهن أثيرة عندهن . وأرسل فى طلب فلينة ، وشتى الأثواب المنزلية وملابس الرجال ، وامتدت أذرع البنات العارية من وراء الباب تتلقاها من الخادم ، وبعد عشر دقائق لحقت بنات آل ميليوكوف جميعاً بالممثلين .

كانت بيلاجيا ميليوكوفا قد أمرت بإخلاء الغرف للضيوف ، ورتبت أمر تقديم الأطايب للسادة والأقنان ، ومضت تجول بين الممثلين دون أن ترفع نظارتها ، تحدق فى وجوههم بابتسامة تكاتم بها ، ولا تستطيع أن تتبين شخصية أى منهم . فلم تستطع أن تعرف ديملر ولا آل روستوف ، بل لم تعرف واحدة من بناتها أنفسهن ، ولا أن تتعرف على أرواب دى شامبر زوجها الراحل ، ولا حلله الرسمية التى لبسنها .

سألت مربيتها وهى تحدّ النظر إلى وجه بنتها التى تنكرت فى زى تترى من قازان :

— ومن هذا ؟ أظنه من آل روستوف !

وسألت ناتاشا :

— حسناً ، أيها السيد الفارس ، من أى فرقة أنت ؟

وأمرت الساقى الذى كان يوزع الحلوى ونحوها :

— أنت هنا ، أعط التركى شيئاً من رُبّ الفاكهة ! فإن شريعته لا تحظره .

وكانت پيلاجيا دانيلوڤنا أحياناً تنظر إلى الخطوات الغريبة المسلية التى يقوم بها الراقصون، وقد قر عزمهم نهائياً أن أحداً لن يعرفهم فى تنكرهم فانجاب عنهم كل خجل ، ثم تخفى وجهها فى وشاحها ، ويرتج جسمها البدين بأسره فى ضحك طيّب لا يُكبح ، شأن الشيوخ .

قالت :

— ساشا صغيرتى ! انظروا إلى ساشا !

وبعد أن انتهت الرقصات الريفية الروسية ورقصات الكورس ، حملت پيلاجيا دانيلوڤنا السادة والأقنان جميعاً على أن يشكلوا حلقة واسعة ، وأُتى بخاتم ، وفتلة ، وروبل من الفضة ، وراحوا جميعاً يلعبون معاً .

وبعد ساعة كانت الأزياء جميعاً قد تكمشت واضطرب هندامها . وساحت الحواجب والشوارب المخطوطة بالفلين المحروق على الوجوه المرحة المتضرجة المنداة بالعرق . وبدأت پيلاجيا دانيلوڤنا تتبين شخصيات الممثلين، وتعجب لأزيائهم البارعة التلفيق ، ومدى لياقتها بالسيدات الصغيرات ، وشكرتهم جميعاً على إجادة ما قاموا به من تسلية وترويح . ودعى الضيوف للعشاء فى غرفة الاستقبال ، وقدّم للأقنان ما يؤكل ، فى غرفة الرقص .

وفى أثناء العشاء قالت خادم عجوز كانت تعيش مع آل ميليكوف :

— الحقيقة إن المرء يخاف إذا ذهب يستطلع بخته فى كوخ الاستحمام الفارغ .

قالت كبرى بنات ميليوكوف :

— ولماذا ؟

— لا تستطيعين آن تذهبي ، فهذا يتطلب شجاعة ...

قالت سونيا :

— سأذهب أنا .

قالت ثانية بنات ميليوكوف :

— اخبرى السيدة الصغيرة بما حدث .

فقالت الخادم العجوز :

— طيب اسمعى إذن . فى مرة خرجت سيدة صغيرة ، وأخذت معها ديكاً ، وأعدت المائدة لشخصين ، حسب الأصول ، وجلست . وبعد أن جلست فترة من الوقت ، إذا بها تسمع فجأة شخصاً قادماً .. وتقبل زحافة ، وأجراس اللجام تصلصل ، وتسمعه قادماً ..! ويدخل ، على شكل رجل بالضبط ، كأنه ضابط - يدخل ، ويجلس معها على المائدة .

صرخت ناتاشا وهى تدير حملاقى عينيها من الهلع :

— آه . ! آه ..!

— نعم ؟ وكيف ... هل تكلم ؟

— نعم . كأنه رجل بالضبط . وكل شيء مضبوط ، وأخذ يغريها ، وكان باستطاعتها أن تبقيه يتكلم حتى يصيح الديك ، لكنها خافت ، خافت فقط ، ووارت وجهها بين يديها . وعندئذ أمسك بهـا ... ومن حسن الحظ أن الخادمات جرين إليها فى تلك اللحظة تماماً ..

قالت بيلاجيا دانيلوفنا :

— لماذا تخيفينهن الآن ؟

قالت بنتها :

— ماما ، كنت معتادة أن تجربى حظك أنت نفسك ...

فسألت سونيا :

— وكيف يفعل المرء ذلك فى المخزن ؟

— افرضى أنك ذهبت للمخزن الآن . وأخذت تصغين . فالأمر يتوقف على ما تسمعين . الخبط والدق ـ هذا فأل ردىء ، أما صوت تحريك الحبوب ففأل حسن ، والمرء أحياناً يسمع هذا الصوت .

— ماما ، قولى لنا ماذا حدث لك فى المخزن .

فابتسمت پيلاجيا دانيلوڤنا ، وأجابت :

— أوه ، نسيت ... ولكن أما من واحدة منكن ذاهبة ؟

قالت سونيا :

— بلى . سأذهب أنا ، اسمحى لى يا پيلاجيا دانيلوڤنا ..! سأذهب .

— ولم لا ؟ ما دمت غير خائفة .

سألت سونيا :

— لويزا إيڤانوڤنا ، تسمحين ؟

لم يكن نيكولاس يبرح سونيا ، سواء كانوا يلعبون لعبة الخاتم والفتلة أو لعبة الروبل ، أو يتكلمون كما يفعلون الآن ، وكان يرمقها بمجامع عينيه ، بنظرة جديدة كل الجدة . كان يبدو له أن اليوم فقط تعلم ملء العلم ، كيف يعرفها ، بفضل ذلك الشارب المخطوط بالفلين المحروق . وكانت سونيا فى الحق أكثر إشراقاً وجيشاناً بالحياة ، وأجمل مما رآها نيكولاس قط من قبل .

وفكر :

— فهذا إذن كيف تكون . كم أنت أحمق !

وهو يحدّ النظر إلى عينيها المتألقتين ، وكانت تحت شاربها ابتسامة

سعيدة نشوى تجعل فى خدّها نونةً حلوة ، ابتسامة لم يرها قط من قبل .

قالت سونيا :

— لست خائفة من شىء . هل أذهب على الفور ؟

ونهضت .

فقالوا لها أين المخزن ، وكيف ينبغى لها أن تقف ساكنة ، وتصغى ، وأعطوها عباءة من الفرو ألقتها على رأسها وكتفيها ، ولحظت نيكولاس بنظرة .

فدار بخاطره :

— يالها من حبيبة هذه الفتاة ! فيم كنت أفكر حتى الآن ؟

خرجت سونيا إلى الممر فى طريقها إلى المخزن . وذهب نيكولاس عجلاً إلى الشرفة الأمامية ، قائلاً أنه قد ضاق بالحرارة والزحمة . وكانت زحمة الناس قد أثقلت جو البيت حقاً .

فى الخارج كانت نفس السكينة الباردة ، ونفس القمر ، بل قد ازداد بهاً وسطوعاً . كان الضوء من القوة ، والثلج يتألق بعدد عديد من النجوم ، حتى ما كان المرء ليريد أن يرفع بصره إلى السماء ، وكانت النجوم الحقيقية لا يراها أحد كانت السماء سوداء ربداء موحشة ، أما الأرض فكانت بهجة للقلب .

كان نيكولاس يفكر :

— إننى أحمق ، أحمق !

وهو يجرى من الشرفة الأمامية ، ويدور حول ركن البيت على الطريق الذى يفضى إلى الشرفة الخلفية . كان يعرف أن سونيا ستمر بهذا الطريق . وفى منتصف السكة كانت تقوم بضع أكوام من خشب الوقود يغطيها الثلج ، وقد امتدت عبرها ، وعلى طولها ، شبكة من الظلال تلقيها على الثلج وعلى الطريق أشجار الزيتون الشامخة الجرداء . وكان هذا الطريق يفضى إلى

المخزن . كانت جدران المخزن الخشبية ، وسقفه المكسو بالثلج الذى يلوح كأنما حفر من حجر كريم ، تتألق فى ضوء القمر . طقطقت شجرة فى الحديقة من الصقيع ، ثم عاد كل شىء ساكناً تامّ السكون . كان يلوح أن صدره لا ينشق هواءً بل ينشق قوة الشباب الخالد ، والبهجة .

ومن الشرفة الخلفية جاء صوت أقدام تهبط الدرَج ، وصرَّت الدرجة السفلى التى كان الثلج قد سقط عليها صريراً مدوياً ، وسمع صوت خادم عجوز تقول :

ـــ إلى الأمام ، إلى الأمام على الطريق مباشرة يا آنسة . ولـكن لا تنظرى خلفك .

فأجاب صوت سونيا :

ـــ لست خائفة .

وجاءت على الطريق ، فى اتجاه نيكولاس ، أصوات قرقعة قدمى سونيا ، وصفيرهما فى حذائها الرقيق .

أقبلت سونيا ملففة فى عباءتهـا ، لم تـكن إلا على بعد خطوتين منه عندما رأته ، ولم يكن يبدو لها ، هى أيضاً ، نيكولاس ذلك الذى كانت تعرفه ، وكانت دائماً تخاف منه خوفاً هيّنا . كان يرتدى ثوب امرأة ، وشعره مشعث مضطرب ، ويبتسم ابتسامة سعيدة جديدة على سونيا . فجرت مسرعةً إليه .

دار بذهنه :

ـــ مختلفه جداً لـكنها مع ذلك هى نفسها .

وهو ينظر إلى وجهها الوضىء بنور القمر . ومرّ بذراعيه تحت العباءة التى تغطى رأسها ، وحضنها ، وضغطها إليه ، وباسها على شفتيها اللتين يعلوهما شارب وتفوح منهما رائحة الفلين المحروق . وباسته سونيا بملء شفتيها على الفم ، وخلّصت يديها الصغيرتين ، وضغطتهما على خديه .

كان كل ما قالا .

ـ سونيا ..!

ـ نيكولاس ..!

ثم راحا يجريان إلى المخزن ، وعادا ، فدخل من الشرفة الأمامية ، ودخلت من الشرفة الخلفية

الفصل الثاني عشر

عند ما ركبوا جميعاً عائدين من بيت پيلاجيا دانيلوڤنا ، رتبت ناتاشا الأمور ، فقد كانت ترى وتدرك دائماً كل شيء ، بحيث تعود هي ومدام شوس مع ديملر في زحافة ، وتعود سونيا مع نيكولاس والخادمات .

وكان نيكولاس في طريق العودة يمضي بسرعة هادئة ولا يطلق الخيل تعدو ، وراح يحدّ النظر ، في ذلك الضوء الخرافي الذي ينسخ كل شيء ، إلى وجه سونيا ، ويبحث تحت الشارب والحاجبين عن سونيا السابقة والحاضرة التي قد عزم ألا يفترق أبداً عنها مرة أخرى . كان ينظر إليها ، وعرف فيها كلاً من سونيا الغابرة والجديدة على السواء ، وذكرته رائحة الفلين المحروق بالاحساس الذي خامره من قبلتها ، فنشق الهواء المثلوج بملء صدره ، وراح ينظر إلى الأرض التي تطير من تحته ، وإلى السماء المتألقة ، وأحس بنفسه مرة أخرى في أرض السحر .

وكان يسالها بين الحين والحين ، بصيغة المخاطب الفرد الحميمة :

ـ سونيا ، أنتِ على خير حال ؟

فتجيبه بنفس الأسلوب :

ـ نعم ، وأنت ؟

وفي منتصف الطريق إلى البيت سلّم نيكولاس الأعنة للحوذي . وجرى إلى زحافة ناتاشا ، ووقف على جانب الزحافة لحظة .

وهمس بالفرنسية :

ـ ناتاشا ، أتعرفين أنى اتخذت قراراً بشأن سونيا ؟

فقالت ناتاشا ، وقد تهللت أساريرها جميعاً فجأة بالفرح :

ـ هل أخبرتها ؟

ـ أوه ، ما أغربك بهذا الشارب وهذين الحاجبين ..! ناتاشا ـ أنت مسرورة ؟

ـ مسروره جداً ، مسرورة جداً ! كنت قد بدأت أضيق بك . لم أخبرك ، ولكنك كنت تعاملها معاملة سيئة . يا له من قلب ، قلبها ، يا نيكولاس ..!

وواصلت :

ـ أنا فظيعة أحياناً ، ولكنى كنت خجلة من سعادتى بينما لم تكن سونيا سعيدة . وأنا الآن مسرورة جداً . والآن اجر ، عُد لها جرياً !

فصاح نيكولاس وهو يحدّ النظر إلى وجهها ، فيجد فى وجه أخته أيضاً شيئاً جديداً ، غيرمألوف ، ورقيقاً فاتناً ، لم يكن قد رآه فيها من قبل :

ـ لا ، انتظرى لحظة ... ما أغرب شكلك ! ناتاشا ، هذا شيء سحرى ، أليس كذلك ؟

فأجابت :

ـ نعم . وأنت فعلت خير ما يمكن أن تفعل

ففكر نيكولاس :

ـ لو كنت رأيتها من قبل كما أراها الآن ، لكنت سألتها منذ زمن طويل ماذا ينبغى لى أن أفعل ، وكنت قد فعلت ما طلبت منى أيا كان ، وكان كل شيء قد مضى على خير ما يرام .

ـ وإذن فأنتِ مسرورة ، وقد فعلت صواباً ؟

ـ كل الصواب ! تعاركت مع ماما منذ بعض الوقت بهذا الشأن .

قالت ماما أنها تحاول أن تصطادك . كيف أمكن أن تقول مثل هذا وأنا أوشكت أن أصرخ فى وجه ماما . لن أسمح لأى شخص أن يقول سوءاً عن سونيا ، فليس عندها إلا الخير والطيبة .

قال نيكولاس ، وهو يتوضح تعبير وجه أخته ، ليستثبت من جدّها وإخلاصها :

— فكل شيء على ما يرام إذن ؟

ثم وثب من على الزحافة ، وجرى عائداً إلى زحافته . والثلج يقرقع تحت حذائه . كان ما يزال فى الزحافة ذلك القوقازي الباسم السعيد ، بشاربه ، وعينيه الوضيئتين تنظران من تحت القلنسوة المتخذة من فرو السمُّور . كان ذلك القوقازي هو سونيا ، وسونيا هذه كانت بالتأكيد زوجته المستقبلة السعيدة المحبّة .

فلما وصلوا إلى البيت ، وقالوا لأمهم كيف قضوا السهرة فى بيت آل ميليكوف ، مضت الفتاتان إلى غرفة نومهما . ولما خلعتا ملابسهما ، دون أن تمحوا شاربيهما المرسومين بالفلين ، جلستا تتحدثان طويلاً عن سعادتهما ، تحدثا عن كيف ستعيشان معاً عند ما تتزوجان ، كيف سيكون زوجاهما صديقين ، وكيف ستكونان سعيدتين . وكان على مائدة ناتاشا مرآتان أعدتهما دونياشا سلفاً .

قالت ناتاشا وهى تنهض وتذهب إلى المرآتين :

— ولكن متى يتحقق كل ذلك ؟ أبداً ، فما أخشى ... هذا طيب جداً ، أكثر مما ينبغى أن أنتظر .

قالت سونيا :

— اجلسى يا ناتاشا . لعلك ترينه .

أوقدت ناتاشا شمعتين ، واحدة فى كل من جانبي مرآة ، وجلست .

قالت ناتاشا ، وهى ترى وجهها :

— أرى شخصاً له شارب .

قالت دونياشا :

— يجب ألا تضحكي يا آنسة .

وبمساعدة سونيا ، والخادم ، وضعت ناتاشا المرآة التي كانت تمسك بها في الوضع الصحيح ، في مواجهة المرآة الأخرى ، واتخذ وجهها تعبيراً رصيناً ، وجلست صامتة . جلست فترة طويلة تنظر إلى الصف المتراجع من الشموع المنعكسة في المرآتين ، وتنتظر ، كما قيل لها في حكايات سمعتها ، أن ترى نعشاً ، أو تراه ، هو ، الأمير أندرو ، في المربع الأخير المبهم الغامض المعالم . لكنها لم تر شيئاً ، على استعدادها أن تصور أدنى هبوة على صورة نعش ، أو على صورة الرجل الذي تحب . وأخذت عيناها تطرفان بسرعة وابتعدت عن المرآة .

وقالت :

— لماذا يرى الآخرون أشياء ، ولا أراها ؟ اجلسي أنت الآن يا سونيا . يجب ، يجب بالتأكيد ، هذه الليلة خاصة ! من أجلي .. اليوم أحس أنني خائفة بشكل فظيع !

فجلست سونيا أمام المرآتين ، ووضعتهما في الوضع الصحيح ، وراحت تنظر .

همست دونياشا :

— سوف ترى الآنسة سونيا بالتأكيد شيئاً ، بينما أنت لا تفعلين إلا أن تضحكي . سمعت سونيا هذا وسمعت ناتاشا تهمس :

— أعرف أنها سترى . رأت السنة الماضية شيئاً .

وكان كل شيء صامتاً ، لمدة ثلاث دقائق تقريباً .

همست ناتاشا :

— سترى بالطبع .

لكنها لم تكمل .. فقد دفعت سونيا المرآتين اللتين كانت تمسك بهما ، فجأة ، وأخفت عينيها بيدها .

وصاحت :

— أوه ، ناتاشا ..!

هتفت ناتاشا ، وهى تمسك المرآة :

— هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ ماذا ؟

لم تكن سونيا قد رأت شيئاً ، كانت توشك عيناها أن تطرفا ، وكانت تهمّ بالنهوض ، عندما سمعت ناتاشا تقول : « سترى بالطبع » . ولم تكن تريد أن تحبط آمال دونياشا ولا ناتاشا ، وإن كان يشق عليها أن تلتزم جلستها الجامدة . لم تكن هى نفسها تعرف كيف ولماذا أفلتت منها هذه الصرخة عندما غطت عينيها .

حثتها ناتاشا ، وهى تمسك بيدها :

— رأيته ؟

فلم تملك سونيا إلا أن تقول :

— نعم ، انتظرى لحظة .. أنا .. رأيته .

لكنها لم تكن تعرف من كانت تعنى ناتاشا ، أهو نيكولاس أم الأمير أندرو .

وسطع فى ذهن سونيا :

— ولماذا لا أقول أنى رأيت شيئاً ؟ الآخرون يرون بالفعل ! ثم من ذا الذى يقطع بأنى رأيت شيئاً أم لم أر ؟

وقالت :

— نعم ، رأيته .

— كيف ؟ واقفاً أم راقداً ؟

— لا ، رأيت .. لم يكن هناك شىء ، أولاً ، ثم رأيته راقداً .

فسألت ناتاشا ، وقد تعلقت عيناها المزعتان بصديقتها :

— أندرو راقد ؟ أهو مريض ؟

— لا ، بالعكس ، بالعكس ! كان وجهه فياضاً بالسرور ، والتفت إلى

وفيم كانت تقول ذلك توهمت بالفعل أنها قد رأت ما تصف حقاً .

— وبعد ذلك يا سونيا ... ؟

— وبعد ذلك لم أتبين ماذا هناك . شيئاً أزرق وأحمر . .

فقالت ناتاشا :

— سونيا ! متى يعود ؟ متى أراه يا ربى ، كم أنا خائفة عليه جداً ، وعلى نفسى ، وعلى كل شىء . . !

ولم تجب على كلمات التهدئة التى راحت سونيا تطايبها بها ، ودلفت إلى السرير ، ورقدت وقتاً طويلا بعد أن خبت شمعتها ، مفتوحة العينين ، بلا حراك ، تحدق فى ضوء القمر من خلال زجاج النوافذ التى غشاها البرد .

الفصل الثالث عشر

بعد إجازة عيد الميلاد بقليل أخبر نيكولاس أمه بحبه لسونيا وعزمه المعقود على أن يتزوج بها . كانت الكونتيسة قد لاحظت منذ زمن طويل ما يجرى بينهما ، وكانت تتوقع هذا الخبر ، فأصغت إليه صامتة ، ثم قالت لابنها أن باستطاعته أن يتزوج عن شاء ، على أنها لن تبارك مثل هذا الزواج ، ولن يباركه أبوه . وأحس نيكولاس لأول مرة أن أمه غير راضية عنه ، وأنها على الرغم من حبها له لن تسلم له . أرسلت فى طلب زوجها بيرود ، دون أن تنظر إلى ولدها ، فلما جاء حاولت أن تنبئه بالوقائع فى إيجاز وبرود ، وبمحضر من ابنها ، لكنها عجزت عن أن تكف

نفسها فأجهشت بالبكاء من الحنق والضيق ، وغادرت الغرفة . وأخذ الكونت الشيخ ، فى عزم متراوح متردد ، يحاول أن يزجر نيكولاس ، ويتوسل إليه أن ينبذ غرضه . فأجاب نيكولاس أن ليس بوسعه أن ينكث بكلمته ، فتنهد أبوه ، ومن الجلى أنه متحير مبلبل ، وسرعان ما صمت ، وذهب إلى الكونتيسة . كان الكونت فى كل لقاء له بولده ، يحس دائماً إثماً من ناحيته لأنه ضيع ثروة العائلة ، فلم يكن يسعه أن يغضب ويثور عليه لأنه رفض الزواج باحدى الوارثات ، واختار سونيا التى لامال لها . وفى هذه المرة كان أشد إحساساً بأنه لو لم تكن أحواله المالية مضطربة ، فلم يكن ليريد زوجة لنيكولاس خيراً من سونيا ، وأنه ما من أحد أحق باللوم لأحوال العائلة المالية منه هو ، باعتماده على متينكا ، وعاداته التى لا سبيل إلى التخلى عنها .

لم يتحدث الأب ولا الأم إلى ولدهما عن المسألة مرة أخرى ، ولكن الكونتيسة أرسلت فى طلب سونيا بعد أيام قلائل ، ولامت بنت أخى زوجها بقسوة لم تكن فى حسبان أيهما ، ورمتها بالجحود وبأنها حاولت أن تصطاد نيكولاس . وأصغت سونيا صامتة خافضةً عينيها إلى كلمات الكونتيسة ، على قسوتها ، ولم تفهم ماذا يراد منها . كانت على استعداد لأن تضحى بكل شىء فى سبيل أولياء نعمتها . كانت التضحية بالنفس أقرب أفكارها إلى نفسها ، وأحبها إليها ، ولكنها لم تستطع أن ترى هنا بم ينبغى أن تضحى ، ولمن . ما كان يسعها إلا أن تحب الكونتيسة ، وعائلة روستوف بأسرها ، على أنها ما كان يسعها أيضاً إلا أن تحب نيكولاس ، وتعرف أن سعادته تعتمد على حبها هذا . لزمت الصمت ، وران عليها الأسى ، ولم تجب . وأحس نيكولاس أن الموقف لا يطاق ، فذهب يفسر الأمر لأمه . توسل إليها أولاً أن تغفر له ولسونيا ، وأن تقر زواجهما ، ثم هدد بأنها لو تحرشت بسونيا ونغصت عليها فانه ليتزوجها سراً ، على الفور .

فأجابت الكونتيسة ببرود لم يره ابنها قط منها ، بأنه رجل راشد ، وأن الأمير أندرو سيتزوج دون موافقة أبيه ، وأن بوسعه أن يفعل نفس الشيء ، لكنها ما كانت لتقبل هذه المتآمرة المحتالة بنتاً لها .

فانفجر نيكولاس عند سماع كلمة « المتآمرة المحتالة » وأنبأ أمه بصوت مجلجل راعد أنه ما كان ينتظر منها أبداً أن تحاول ارغامه على بيع مشاعره ، أما والأمر كذلك ، فإنه سيقول ، للمرة الأخيرة أنه ...

لكن الوقت لم يتح له لأن يتفوه بتلك الكلمة الحاسمة التي كانت أمه تنتظرها في فزع ، مما يبدو على وجهه من تعبير ، والتي كانت لتبقى ، أبداً ، ذكرى قاسية عليهما كليهما . لم يتح له الوقت لأن يقولها ، فقد أقبلت ناتاشا بوجه باهت شاحب مصمم ، ودخلت الغرفة من الباب الذي كانت تتسمع منه .

وصرخت ، أو أوشكت ، حتى تغرق صوته :

— نيكولاس ، أنت تقول كلاماً فارغاً ..! اسكت ، أقول لك ..!

وقالت لأمها :

— ماما ، حبيبتي ، ليس الأمر هكذا أبداً ... يا حبيبتي الحلوة المسكينة .

وأحست الأم بأنهما كانا على حافة فرقة نهائية قاطعة ، فكانت تحملق لابنها في هلع ، لكنها لم تستطع ، ولم تشأ ، في عناد الصراع وحمياه ، أن تسلم أو تنزل عن شيء .

قالت ناتاشا :

— نيكولاس ، سوف أشرح لك فيما بعد . اذهب الآن ! اسمعي ياماما يا حبيبتي ...

كانت كلماتها مختلطة مفككة الروابط ، لكنها حققت الغرض الذي كانت تستهدفه .

انخرطت الكونتيسة فى بكاء فادح مبهظ ، ووارت وجهها فى صدر بنتها ، بينما نهض نيكولاس ، ممسكاً برأسه ، وبارح الغرفة .

وبدأت ناتاشا تعمل على إصلاح ذات البين ، ووفقت فى ذلك إلى حد أن نيكولاس تلقى وعداً من أمه بأن سونيا لن تلقى تنغيصاً أو كرباً ، بينما وعد من جانبه بألا يقوم بشىء فى غير علم والديه .

وكان نيكولاس قد قر عزمه على أن يسوى أموره فى الفرقة ، وأن يستقيل من الجيش ، ويعود فيتزوج بسونيا ، وسافر فى أوائل يناير ليلحق بفرقته ، آسفاً ، جاداً ورصينا ، وعلى نزاع مع أبويه . وإن كان متيما بالحب ، فما كان يبدو له .

وبعد أن مضى نيكولاس كانت الأحوال فى أسرة روستوف أكثر مدعاة للكآبة من أى وقت مضى ، وسقطت الكونتيسة فريسة للمرض من شدة اهتياجها النفسى .

كانت سونيا شقية لفرقتها عن نيكولاس ، وأشد شقاء لتلك النغمة التى ما كانت الكونتيسة يسعها إلا أن تتخذها بإزائها . وكان الكونت أكثر قلقاً واضطراباً من أى وقت مضى بسبب أحواله المالية التى كانت تقتضى عملا حاسماً . فقد كان لا مندوحة من بيع بيتهم وضيعتهم بالقرب من موسكو ، وكان عليهم لذلك أن يذهبوا إلى موسكو . ولكن صحة الكونتيسة اضطرتهم إلى تأجيل السفر يوماً بعد يوم .

أما ناتاشا فقد كانت أطاقت الفترة الأولى من فرقتها عن خطيبها ، وكان حملها عليها خفيفاً ، بل كانت لا يعوزها السرور ، ولكنها كانت الآن يزداد بها القلق وجيشان المشاعر ونفاد الصبر يوماً بعد يوم . كانت تفكر فى أن أفضل أيامها ، تلك الأيام التى كانت لتنفقها فى محبته ، مضيعة الآن فى غير طائل ولا جدوى لأحد ، وكانت هذه الفكرة تلح عليها بالمذاب دون أن تكف . كانت خطاباته ، فى الغالب ، تغيظها وتحنقها . كان

بوجعها ويؤلمها تفكيرها فى أنها لا تعيش إلا بذكراه بينما كان هو يحيا حياة حقة ، يزور أماكن جديدة ، ويرى أناساً جدداً ، ويشوقه كل ذلك. وكلما كانت خطاباته أمتع وأدعى إلى التشويق اضطرم حنقها وضيقها . أما خطاباتها له فما كان أبعدها من أن تمدها براحة أو عزاء ، بل كانت تبدو لها التزاماً متكلفاً مرهقاً . لم تكن تستطيع أن تحسن الكتابة ، فلم تكن تستطيع أن تتصور أنه من الممكن التعبير فى خطاب . عن واحد من ألف مما تعبر عنه جهرة ، أو بابتسامة ، أو بنظرة . فكانت تكتب له خطابات رسمية ، رتيبة جافة ، لا تضفى عليها أدنى أهمية ، وتكتبها فى مسودات تصحح لها الكونتيسة فيها أخطاءها الاملائية .

ولم تتحسن حالة الكونتيسة الصحية ، على أنه كان من المستحيل تأجيل الرحلة إلى موسكو بعد ذلك ، فلا مناص من إعداد جهاز ناتاشا ، ومن بيع البيت . فضلا عن أنه كان ينتظر وصول الأمير أندرو إلى موسكو حيث كان الأمير بولكونسكى الشيخ يقضى الشتاء . وكانت ناتاشا تحس يقيناً أنه قد وصل بالفعل .

ومن ثم بقيت الكونتيسة فى الريف ، واصطحب الكونت معه سونيا وناتاشا ، ومضى إلى موسكو فى آخر يناير .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٩٧٠١

I.S.B.N 977-01-5110-9

C
733
54h
7
91
Bibliotheca Alexandrina
04436138

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٧٠ قرشا